تحفة الواعظ
في
الخطب والمواعظ

جمع وترتيب
أحمد فريد

الناشر
دار العقيدة للتراث
الإسكندرية

الطبعة الثالثة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٥٩١٢ / ١٩٩٠

الناشر
دار العقيدة للتراث
٨٣ ش الفتح - باكوس
الإسكندرية
ت/ ٥٧٠٧٣٢١-٥٧٠٦٠٨٢

تحفة الواعظ
في
الخطب والمواعظ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ للّه الذي أَحْيَا قلوب المؤمنين بتبصرته ، وزَجَر الغافلينَ عن تذكرَته بزواجر موعظته .

والصلاة والسلام على البشير النذير ، والنبي الساطع هُداه كالصبح المستنير ، والرسول الذي غدت مواعظه كيمياء السعادة وامتثال أوامره والاجتناب عن نواهيه موصلين إلى الحُسنى وزيادة ، وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحبابه ، المتخلقين بخلقه ، والمتأدبين بآدابه ، الذين بذلوا نفوسهم النفيسة في إظهار دينه القويم ، وجاهدوا بالقلم واللسان والسيف والسِّنان من حاد عن صراطه المستقيم ، ونشروا الكتاب والسنة ، وتمت بهم من اللّه على الناس المنة ، وعلى تابعيهم والأئمة المجتهدين ومتبعيهم . ما نقلت أخبارهم ودونت آثارهم .

أما بعد

فقد سألني بعض الإخوان والأحبة والأخدان ، ممن له في العلم رغبة ، ومن خوف التقصير رهبة ، أن أجمع كتاباً في تذكير الخواص وتعليم العوام ، تنقشع به عن قلوب الغافلين الغموم ، ويشحذُ هِمَمَ السائرين إلى مجاورة الحي القيوم ، ويبين طريق السالكين من السابقين الأولين ، فاستعنت باللّه في جمع مادة هذا الكتاب ، واللّه تعالى أسأل أن يوفقني للصواب ، وأن يعلمني ما لم أعلم وينفعني بما أتعلم ، ويجعلني ممن يتعظ بمواعظه ، ويعمل بفوائده ، وينال أجر روايته وخير جمعه وتفهيمه ، وأن لا يجعلني ممن أمر الناس بالبر ونسي نفسه ، وأضاء القبور بمصباحه وأظلم رَمْسَه .

ومن أمانة العلم ينبغي أن يقال ، إن العبد الفقير أسير الذنوب الغافل عما في نفسه من العيوب ، ليس له في الكتاب فضل ولا اجتهاد ، وإنما كان الغرض من الكتاب أن أوفر على إخواني المشتغلين بالوعظ ومخاطبة الخواص والعوام ، تجهيز

الخطب المنبرية ، والمواعظ السلَفية ، وبخاصة مواعظ المواسم والأعياد ، وقد أشرت في هامش الكتاب إلى مصادر كل خطبة لعل طالب المزيد ، يقف في هذه المراجع على ما يريد .

ورأيت من اللائق بهذا المجال ، أن أبدأ بذكر فضائل الوعظ وآدابه ، لئلا يزهد القادرون في ثوابه ، أو يذهل الغافلون عن آدابه ، وقد اشتمل الكتاب على خمس وعشرين خطبة أو موعظة ، في مسائل متباينة ، وأمور متفرقة مما يحتاج إليه الواعظ والعابد ، وربما تبادر إلى ذهن القارىء ، أنني قَصّرتُ في هذا الكتاب ، في المواعظ المشتملة على ذكر الموت وقصر الأمل والقيامة والجنة والنار ، خاصةً وهذه الموضوعات من أقوى سياط الوعظ ، وإنني أحيل القارىء الكريم إلى كتابي (البحر الرائق في الزهد والرقائق) فقد أشبعت هذه الموضوعات بحثاً بفضل الله ومنه وكرمه ، ولا يستغني الواعظ المتسنن عن هذين الكتابين ، وفيهما من الفوائد والمنافع ما أرجو من الله عز وجل أن ينفع بهما النفع الكثير ، وأن يعود علينا وعلى من يشتغل بالوعظ منهما من الله الجليل الثواب الجزيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد بدأت كثيراً من الخطب بخطبة الحاجة ، كما هو الثابت عن النبي ﷺ ، وربما بدأت بمقدمات أخرى ، حتى أمدَّ الواعظ ببعض العبارات الفريدة ، والأساليب الجديدة ، وربما إختصرت خطبة الحاجة ، كما كان يفعل ﷺ .

وربما اعترض على المصنف معترض ، وله في السنة رغبة وغرض ، فقال لقد أطال المصنف في الخطب ، والجواب والله الهادي للصواب ، خير الهدي هدي محمد ﷺ ، فقد كان النبي ﷺ يقصِّر الخطبة أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس ، كما قال ابن القيم رحمه الله في الزاد ، والطول والقصر أمر نسبي . كما أمر النبي ﷺ الأئمة بالتخفيف في الصلاة ، وصلى بالناس المغرب بسورة الأعراف ، وكان يصلي بالنظائر سورتين في كل ركعة من أواسط المفصل ، هذا ولا أنصح من اشتغل بالوعظ من هذا الكتاب ، أن يذكر ما في الخطبة كلها دون التفات إلى أحوال الناس ، ولكن أردت من كل خطبة أن تكون موضوعاً في بابها ، يتخير منه الناصح اللبيب ما يليق بمن تصدى لوعظهم ، فلا عُتْب على المصنف في ذلك ، وإنما على كل واعظ أن يراعي أحوال الناس ، ليس في الطول والقصر فحسب ، ولكن في موضوع الموعظة ، وطريقة عرضها ، وكثرة النصوص فيها ، مع موافقة شرحها لأحوال الناس ، فإن الناس يتفاوتون في ذلك تفاوتاً بعيداً ، فليتخير الناصح من هذا

الكتاب ما يلائم ظروفه وأحوال من يتصدى لوعظهم .

وقد بذلت جهدي في تحقيق مادته ، وتنقيح عبارته ، وتفسير مُغلقه ، خاصة وهذا الكتاب يخص طلاب العلم الذين حملوا الدعوة إلى دين الله عز وجل ، وهداية الناس إلى سنة رسول الله ﷺ .

وأسميته (تُحفَة الوَاعِظِ في الخُطَبِ والمَوَاعِظ) والله تعالى المسؤول أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم ، ومقرباً إليه وإلى داره دار السلام والنعيم المقيم ، وأن ينفعنا به وعباده المؤمنين ، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى ، ويختم لنا بخير في عافية ، فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين آمين .

وهذا أوان الشروع فيما أردناه ، والبداءة بفضل الوعظ وآدابه كما شرطناه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فَضْلُ الوَعظِ والتَّذكير

فإنه لا يشك عالم ولا جاهل ، في أن وظيفة الوعظ والتذكير ، من أشرف الوظائف ، فإنها وظيفة الأنبياء والمرسلين ، الذين اختصهم الله عز وجل بهذا الفضل المبين .

قال الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

قال سفيان الثوري :

(أشرف الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء) .

قال القاسمي رحمه الله[١] :

(موعظةُ العامة والتصدي لإرشادهم في الدروس العامة ، من الأمور المهمة ، المنوطة بخاصة الأمة ، إذ هم أمناء الشرع ونور سراجه ، ومصابيح علومه وحفاظ سياجه) .

وقال الشيخ محمد عبد العزيز الخولي[٢] :

* بعث الله رسله عليهم السلام مبشرين ومنذرين ، فحاربوا الرذائل ، وأحيوا الفضائل ، وحافظوا على العقول ، وصانوا الأعراض وحموا الأموال ، ومنعوا الاعتداء على الأنفس ، وردوا الغوي عن غيه ، والباغي عن بغيه .

وكذلك بعث الله محمداً خاتم النبيين فدعا الناس إلى الله وهداهم إلى الحق ورسم لهم الصراط السوي فتمم مكارم الأخلاق .

---

(١) موعظة المؤمنين (٢) المكتبة التجارية .

(٢) إصلاح الواعظ الديني (٧ ، ٨) بتصرف ـ طبعة دار الفار .

تلك سنّة اللّه أن يكون فيهم هاد مذكر ، ورسول مبشر ، ولن تجد لسنّة اللّه تبديلاً ولن تجد لسنّة اللّه تحويلاً .

وقال أيضاً :

« وما الوعظ إلا كلام يراد به التأثير في نفوس الناس ، بما يجلب من تعزية للمصاب ، وتسلية للحزين ، وشجاعة للجبان ، وقوة للضعيف وأمن لليائس ، وفرج للمكروب ، وغنى للمحروم ، وصبر للقنوط .

ولهذا كان الوعظ الديني جليل الغاية ، بعيدَ المرمى ، أوجبه اللّه على المسلمين في المسجد كل يوم جمعة ، وكل يوم عيد ، وفي موسم الحج ، وعلمهم حسن الاستماع والإنصات .

وقد دلت أدلة الكتاب والسنّة المطهرة على فضل الوعظ والتذكير :

* قال اللّه عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة : ٢٤) .

* وقال اللّه عز وجل : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) .

* وقال اللّه عز وجل : ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ ﴾ (المائدة : ٦٣) .

* وقال عز وجل : ﴿ وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

* وقال ﷺ : «نضَّرَ اللّه امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فَرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[1] .

فقوله ﷺ : «نضَّرَ اللّه امرءاً» قال الرامهرمزي في (المحدث الفاصل) : يحتمل معناه وجهين :

أحدهما : ألبسه اللّه النضرة وهي الحسن وخلوص اللون فيكون تقديره جَمَّلَهُ اللّه وَزَيَّنَه .

---

(١) رواه أحمد (١٨٣/٥) ، والدارمي (١/ ٧٥) ، وابن حبان في الموارد ، وابن عبد البر في الجامع وقال البوصيري في الزوائد ، هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ـ الصحيحة رقم ٤٠٤ ، وقد أورده السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة (٢٥) .

والثاني : أن يكون في معنى أوصله اللّه إلى نضرة الجنة ، وهي نعمتها ونضارتها ، قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيم ﴾ (المطففين : ٢٤) ، وقال : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ (الإنسان : ١١) .

وإنما دعا رسول اللّه ﷺ لسامع السنّة ومبلغها بالنضارة ، جزاءً وِفاقاً لما قام به في بثها ونشرها ، وجعلها بذلك غضةً طريةً ، وممن علل بذلك ، المُلاَّ علي القَارِي في المرقاة (١/١٨٨) حيث قال : (لأنه جدد بحفظه ونقله طراوة الدين ، فجازاه في دعائه بما يناسب عمله) .

وقال كذلك : (خُصَّ مُبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء ، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله) .

وقال أيضاً (١/٢٨٨) : (قيل وقد استجاب اللّه دعاءه فلذلك تجد أهل الحديث ، أحسن الناس وجوهاً وأجملهم هيئة) .

وعن سفيان بن عيينة قال : (ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة .

وقال ابن العربي في شرحه لجامع الترمذي : (هذا دعاء من رسول اللّه ﷺ لحامل علمه ولا بد بفضل اللّه من نيل بركته)[١] .

* وقال ﷺ : **«إنَّ اللّه وملائكته حتَّى النَّملة في جُحْرِها وحتى الحوت في البحرِ لَيُصَلُّون على مُعَلِّم النَّاسِ الْخَيْرَ»**[٢] .

قال ابن قدامة رحمه اللّه[٣] :

فإن قيل : ما وجه استغفار الحوت للمعلم ؟ .

فالجواب : أن نفع العلم يعم كل شيء ، حتى الحوت فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل وما يحرم ، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء ، فألهم اللّه تعالى الكُلَّ الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم .

* وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : **«الدنيا**

---

(١) شرح الحديث نقلاً عن كتاب دراسة حديث (نضر اللّه امرءاً سمع مقالتي» رواية ودراية للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد (١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥) بتصرف .

(٢) رواه الطبراني والضياء عن أبي أمامة ورواه البزار مختصراً بلفظ «معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر» وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٣٧) رقم ٧٩،٧٨.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤٤).

ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر اللّه ، وما والاه وعالماً ومتعلماً»[1] .

والمراد بالدنيا كل ما يشغل عن اللّه عز وجل ، ويبعد عنه .

ولعنه بعده عن نظره ومعنى (إلا ذكر اللّه وما والاه) أي ما أحبه اللّه تعالى مما يجري في الدنيا فطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه كلها داخلة فيما يوافق ذكر اللّه .

* وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **«لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه اللّه مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**[2] .

والحسد يطلق ويراد به تمني زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام ويطلق ويراد به الغبطة ، وهو تمني مثل ما له وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .

والحكمة كما قال محمد حبيب اللّه الشنقيطي[3] : (المراد بها القرآن وكل ما منع من الجهل وينهى عن القبيح والفقه والقضاء بالعدل ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كثِيراً ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

* وعنه ﷺ قال : **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ ، أو علم ينتفعُ به ، أو ولدٍ صالح يدعو له»**[4] .

ولذا قال السلف : علمك هو ولدك المخلد .

* وعن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه ﷺ لعليٍّ : **«لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً ، خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم»**[5] .

* وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم»**[6] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي وقال الترمذي حسن وحسنه الألباني.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (١/١٦٥) ، ومسلم في فضائل القرآن وما يتعلق به والنسائي في العلم وابن ماجة في الزهد .

(٣) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم (١١/٨٥) الوصية : باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، والمراد بالصدقة الجاريه الوقف على وجوه الخير .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) رواه مسلم (١٦/٢٢٧) العلم : باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

* عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه قال : ما تصدق مؤمن بصدقة أحبّ إلى اللّه تعالى من موعظة يعظ بها قومه ، فيفترقون وقد نفعهم اللّه عز وجل بها .

* وقال الحسن : اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن رابعاً فتهلك .

* وقال سفيان الثوري : لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يُعلِّمَ الناس العلم .

* وعن معاذ رضي اللّه عنه قال : تعلموا العلم فإن تعلمه للّه خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة .

* وقال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

أحوال الوعاظ[1]

جاء في المؤيد عدد ٤٣٩٧ في ٧ شعبان سنة ١٣٢٢ لأحد علماء الأزهر:

لـو كان بي من الفصـاحة والبـلاغة، مـا أشرح بـه أحوال الـوعـاظ، الآمـرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لأتيت لكم بالعجائب التي يتبرأ منها الدين، ولأقمت على براءة الدين منها الأدلة الموصلة إلى اليقين، ولكني والحمد لله لا أحرم بفضله جل وعلا أن أقضي بعض الواجب عليَّ نحو الإسلام والمسلمين، بلا ميل مع الشِّيَع والوَضّاعين، مستنداً فيما أقوله من الأدلة والبراهين إلى الكتاب القويم، وسنـة النبي الكريم، وهدي الصحابة والتابعين والعلماء الراشدين **«من رأى منكم منكـراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[2].

ومن المعلوم أن وظيفة هؤلاء الوعاظ تنحصر في أمور:

١ ـ إرشاد العامة إلى معرفة اللّه تعالى، وما يجب أن يثبت له من الصفات العلية، وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقه تعالى، وما للرسل والأنبياء من مثل هذا عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ تعليمهم أركان الدين من صلاةٍ وصوم وحجٍ وزكاةٍ، وبيان فائدة آدابها لهم، ومنافعها العائدة عليهم في الدنيا والآخرة.

٣ ـ دعوتهم إلى الخير وصرفهم عن ناحية الشر، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

---

(١) نقلاً عن كتاب إصلاح المساجد من البدع والعوائد (١١٩/١٢٢) للقاسمي.

(٢) رواه مسلم (١/٥٠) وأبو داود (١١٤٠) والنسائي (٢/٢٧٠) والترمذي (٢/٢٦) وابن ماجة (١٢٧٥) وأحمد (٣/١٠، ٢٠، ٤٩، ٥٢، ٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري وقال الترمذي حسن صحيح.

المنكر ، وحثهم على التمسك بالدين وآدابه وفضائله ، وما أمر الله به ورسوله ﷺ .

٤ ـ تحريضهم على العمل والاجتهاد ، وتقرير أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرَاً يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٤) .

٥ ـ حضهم على التعاون في المشروعات ، وتربية البنين والبنات ، وعلى الدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة واستشعار الأخوة التي هي مصدر حياة الأمم ، ومشرف سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة ، ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا ﴾ (آل عمران : ١٤٥) .

٦ ـ تطهير قلوبهم من الأوهام الفاسدة التي قد تجر إلى الاعتقادات الباطلة ، حتى يخضعوا لخالق السموات والأرضين ، وقاهر الناس أجمعين ، وحتى يقولوا كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَر السَّمَاوَاتِ والأرْضَ حَنِيفاً ومَا أنا مِن آلمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٩) وكما أمر رسول الله ﷺ أن يقول : ﴿ إنَّ صلاتي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبّ آلعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أمِرتُ وأنَا أوّلُ المُسْلِمينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٣) .

ثم قال : يعلم الله أنهم يقوموا بهذه الأمور الواجبة عليهم ، ولكنهم تعلقوا بحبال الأباطيل ، والخرافات والأوهام والموضوعات ، فأخذوا ينفثون السم في مجالسهم ويدسون الأحاديث الموضوعة في محافلهم ، ويختلقون على النبي ﷺ على حسب ما تسول لهم أنفسهم ، ويركبون الأسانيد الملفقة ثم ينسبون لسيد الخلائق ما هو بعيد عن الحقائق ، ويبالغون في التحذير والترغيب ويطنبون ويسهلون ويشددون كما يشاؤون .

ثم قال : يا أهلَ الوعظ أَلِفْتُم الكذب على النبي سيد المرسلين ، وادعيتم أن هذا هو الحق المبين ، وهو الإثم المبين ، والمحرم بإجماع المسلمين قال ﷺ : «مَنْ كَذب عَليَّ مُتعمداً فَلْيَتبوأ مَقْعَده مِن النَار»[1] .

---

(١) حديث متواتر أخرجه الشيخان وغيرهما عن غير واحد من الصحابة وهو في البخاري (١/٢٠٠) العلم : باب إثم مَنْ كذب على النبي ﷺ وفي أحاديث الأنبياء وفي مسلم (١/٦٧ ، ٦٨) في مقدمة صحيحه في باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ .

وقال الإمام النووي في شرح مسلم بتحريم رواية الأحاديث الموضوعة على من عرفها أو غلب على ظنه وضعها فمن روى حديثاً علم وضعه أو ظن وضعه فهو مندرج في الوعيد ، ولا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ بين ما كان في الأحكام وبين ما لا حكم كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك من أنواع الكلام ، فكله حرام من أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح بإجماع المسلمين ، وقد أجمع أهل الحل والعقد على تحريم الكذب على آحاد الناس ، فكيف بمن قوله شرع وكلامه وحي ، والكذب عليه كذب على الله تعالى . ثم قال : يا أهل الوعظ . ناديتم بالتوسل بالصالحين والأولياء إلى الله الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، وقلتم ما هذا كفراً إن هذا إلا توسط بيننا وبين الله تعالى في قضاء حاجاتنا وأمورنا ، والله جل شأنه قد صرح بأن تلك العقيدة من عقائد المشركين وقد نعاها عليهم في قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (يونس : ١٨) .

يا أهل الوعظ : شاركتم عبدة الأوثان في اعتقادهم ، فإن هؤلاء ما كانوا يعبدونها لذاتها بل باعتقاد أنها تقربهم إلى الله تعالى ﴿ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى اللّه زُلْفى ﴾ (الزمر : ٣) .

وقد جاء في سورة الفاتحة التي نقرأها ونكررها كل يوم في الصلاة ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة : ٥) . فلا استعانة إلا به جل شأنه .

يا أهل الوعظ : جاءنا القرآن بأن لا يدعى أحد مع الله ، ولا يقصد أحد سواه فقال : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ (الجن : ١٨) وقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَد ﴾ (الإخلاص : ١ ، ٢) . والصمد هو الذي يقصد في الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يريدون وما يحبون وما يطلبون ، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر كما هو معروف عند اللغويين فلا صمد سواه .

يا أهل الوعظ : أرشدنا القرآن إلى وجوب القصد إلى الله وحده بأصرح عبارة ، في قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

يا أهل الوعظ : جاءتنا الأخبار الصحيحة أن عمر رضي الله عنه حينما كان

في الاستسقاء قال : (إنَّا كنا نتوسل إليك بنبيك ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا)[1] .

قال ذلك رضي الله عنه والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، فإذا كان هذا حال النبيين والصديقين فكيف بالأولياء والصالحين .

يا أهل الوعظ : كأنكم تظنون أن في ذلك تعظيماً لقدر الصالحين والأولياء ، مع أن أفضل التعظيم والاحترام لهم لا يكون إلا باختيار ما اختاروه لأنفسهم ، ولا يكون إلا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ولا معنى للتوسل بهم إلا هذا الاقتداء ، كما أنه لا معنى للتوسل بالأحياء إلا طلب المشاركة في الدعاء كما ورد في الحديث .

يا أهل الوعظ : أي حالة تدعوكم إلى هذا الاعتقاد ، وبين أيديكم القرون الثلاثة الأولى ، لم يكن فيها شيء من هذا التوسل ، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه ، وكتب السنة والتاريخ بين أيدينا ناطقة بذلك ، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة في الدين ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

يا أهل الوعظ : قوموا وانتبهوا وانتظموا في سلك قوله تعالى : **﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدتْ وُجُوهُهُمْ أكفرْتُم بعْد إيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِما كُنتُمْ تكْفُرونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رحْمةِ اللَّه هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾** . (آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٧) .

لطائف الوعظ

قال الإمام زين الدين ابن رجب الحنبلي[2] :

المواعظ سياط تضرب بها القلوب ، فتؤثر في القلب كتأثير السياط في البدن والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده ، لكن يبقى أثر التألم

(١) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الاستسقاء (٢/٤٩٤) باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا .

(٢) لطائف المعارف (١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦) بتصرف .

بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوي الضرب كانت مدة الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار ، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة .

أفضل الصدقة تعليم جاهل ، أو إيقاظ غافل ، ما وصل المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الوعظ ليستيقظ .

إنما التأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوي الذراعين ، فيؤلم ضربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن ، لا قوة له ، فماذا ينفع تأديبه بالضرب .

كان الحسن إذا خرج إلى الناس ، كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده ، كانوا لا يعدون الدنيا شيئاً .

قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه اللّه ، زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر على الصَفَا .

المواعظ ترياق القلوب ، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلا طبيب حاذق معافى ، فأما لذيع الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه .

وغير تقي يأمر الناس بالتقى	طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير . قال رجل لابن عباس : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فقال له ابن عباس إذا لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ثم تلا : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُوْنَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّه أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾(الصف:٢،٣).

وقوله حكاية عن شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود : ٨٨) .

قال النَّخَعي : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث .

ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد ، لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لَئِنْ لَمْ يَعِظ العاصينَ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ　　فَمَنْ يَعِظ العَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّد .

قال سعيد بن جبير : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر .

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ　　ومَنْ لَـهُ الحُسْنَى فَقَط .

قلت : ولعل العبد الذي يسعى لإصلاح نفوس الناس بدعوتهم إلى التوبة والاستقامة على طريق الله عز وجل ، أن يوفقه الله عز وجل لتوبة نصوح ، وأن يصلح له نفسه ، فالجزاء من جنس العمل ، نسأل الله أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا .

والعبد كذلك يجتهد في دعوة الناس إلى الله عز وجل وإصلاحهم ، ويجتهد كذلك في دعوة نفسه وإصلاحها والناس يطيعونه ويعصونه ، ونفسه تطيع وتعصى ، وقد قال بعض السلف : حق على شاربي الكؤوس أن يعظ بعضهم بعضاً .

خطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله يوماً فقال في موعظته : (إني لأقول هذه المقالة ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله وأتوب إليه) .

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه ، وقال في آخره : (وإني لأعظك بهذه وإني لَكَثِير الإسراف على نفسي ، غير مُحْكِم لكثير من أمري ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذاً لتواكل الخير وإذاً لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذاً لاستحلت المحارم ، وقل الواعظون والمسارعون لله بالنصيحة في الأرض .

والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر ، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه) .

وأعلنت الفـواحش في البـوادي　　وصـار النـاس أعـوان المـريب

إذا مـــا عبتهم عـــابـــوا مـقـــالي	لمـا في القـوم من تلك العيـوب
وودوا لـــو كففنـــا فـــاسـتـــوينـــا	فصـــار الناس كـالشيء المشـوب
وكـنـــا نسـتـــطب إذا مـــرضـنـــا	فصـــار هـلاكنـــا بيـــد الـطبيب

قال الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي[1] :

لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف . وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس . وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل .

ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام ، وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي .

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ، ما منهم إلا من قد رق قلبه ، أو دمعت عينه ، فقلت لنفسي كيف بك إن نجوا وهلكتِ ، فصحت بلسان وجدي إلٰهي وسيدي إن قضيت عليَّ بالعذاب غداً ، فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك ، لا لأجلي لئلا يقولوا عذب من دل عليه ، إلٰهي قد قيل لنبيك ﷺ : اقتل ابن أُبيٍّ المنافق ، فقال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

إلٰهي فاحفظ حسن عقائدهم فِيَّ بكرمك ، أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك ، حاشاك واللّٰه يا رب من تكدير الصافي . زوَّر رجل شفاعة إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة ، فاطلع المُزَّور عليه على الحال ، فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة ، واجتهد حتى قضيت ، ثم قال للمُزَوِّرِ عليه ما كنا نخيب من علق أمله بنا ورجا النفع من جهتنا .

إلٰهي فأنت أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، فلا تخيب من علق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك ، ودعا عبادك إلى بابك ، وإن كان متطفلاً على كرمك ، ولم يكن أهلاً للسمسرة بينك وبين عبادك ، لكنه طمع في سعة جودك وكرمك ، فأنت أهل الجود والكرم ، وربما استحيا الكريم من رد من تطفل على سماط كرمه .

قال في اللطائف[2] :

---

(١) صيد الخاطر (٢٣٦ - ٢٣٧) المكتبة العلمية .
(٢) لطائف المعارف لابن رجب (٧٨) .

يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى ، مجالس الذكر مَارِسْتَان الذنوب ، تداوى فيها أمراض القلوب كما تداوى أمراض الأبدان في مَارستان .

الذكر نُزَهٌ لقلوب المؤمنين ، تتنزه فيها بسماع كلام الحكمة ، كما تتنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها .

مجلسنا هذا حضرة في روضة الخشوع ، طعامنا فيه الجوع وشرابنا فيه الدموع ، ونقلنا هذا الكلام المسموع ، نداوي فيه أمراضاً أعيت جالينوس وبختيشوع ، نسقي فيه ترياق الذنوب وفاروق المعاصي ، فمن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع كم أفاق فيه من المعصية مصروع ، وبرىء فيه من الهوى ملسوع ، ووصل فيه إلى الله مقطوع ، ما عيبه إلا أن الطبيب الذي له ، لو كان يستعمل ما يصف للناس لكان إليه المرجوع .

يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع .

يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع .

آداب الوعظ

آداب الواعظ في نفسه(1) :

* من آداب الواعظ في نفسه أن يقصد بوعظه وجه الله عز وجل ، ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال، أو جاه أو شهرة، أسوةً بالأنبياء في قولهم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (الشعراء : ١٠٩) .

قال الشافعي رحمه الله : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ، على أن لا ينسب إليَّ حرفٌ منه .

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى قال : يا قوم أريدوا بعلمكم الله ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع ، إلاَّ لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلاَّ لم أقم حتى أفتضح .

* ومنها : أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، وحث عليها والخلال

(1) انظر المجموع بشرح المهذب للنووي (١/٥٣ - ٥٤ - ٥٥)، وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني (من ١٥ إلى ٣٠) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/١٥٠) مكتبة المعارف .

الحميدة والشيم المرضية التي أرشد إليها ، من التزهد في الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بفواتها ، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه من غير خروج إلى الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنيء المكاسب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع ، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ وتنظيف الإبط وإزالة الروائح الكريهة واجتناب المكروهة وتسريح اللحية والتطيب .

* ومنها: الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات .

* ومنها: دوام مراقبة الله تعالى في علانيته وسره، والمحافظة على قراءة القرآن ونوافل الصلوات والصوم وغيرهما .

* ومنها: مداومته على الأذكار الموظفة ، والدعوات ، وسائر الآداب الشرعيات .

* ومنها: أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف.

قال الزهري: هوان بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم.

وقد رخص بعضهم إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض أئمة السلف من المشي إلى الملوك وولاة الأمر .

* ومنها: أن يجتهد في العمل بما يعظ الناس به، حتى لا يدخل في قوله عز وجل ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. (الصف: ٢، ٣).

كتب مالك إلى الرشيد رحمهما الله يقول: إذا علمت علماً فلير عليك علمه وسكينته ووقاره وحلمه .

وقال بعضهم: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل.

* ومنها: أن لا يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم، قراءةً ومذاكرة ولا يقنع بالقليل إذا كان يمكنه أن يستزيد منه كما قال بعضهم:

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

* ومنها: أن لا يستنكف من أن يتعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة. عن مجاهد قال: لا يتعلم العلم مُسْتَحٍ ولا متكبر.

* ومنها: أن يفيد إخوانه بما يتعلمه بقدر طاقته. عن زيد بن أبي الزرقاء قال أخبرنا سفيان الثوري - ونحن شباب على بابه - فقال: «يا معشر الشباب، تعجلوا بركة هذا العلم لعلكم لا تبلغون ما تؤمِّلون منه، لِيُفِدْ بعضكم بعضاً».

فصل في آداب الواعظ في مجلس الوعظ[1]:

* من آداب الواعظ في مجلس الوعظ: أن لا يتصدر للوعظ حتى يصير أهلاً له، عن الشبلي قال: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه.

* ومنها: إذا عزم على مجلس الوعظ تطهر من الحدث والخبث وتنظف وتطيب ولبس من أحسن ثيابه قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة.

كان مالك رحمه الله إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصة ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، وقال أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

* ومنها: أن يجلس بارزاً للحاضرين، ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن والصلاح، ويتلطف بالباقين ويكرمهم بطلاقة الوجه.

* ومنها: ما استحبه بعض العلماء، أن يبدأ بقراءة شيء من كتاب الله تعالى تيمناً وتبركاً، واستحب بعضهم كذلك أن يختم الدرس بالرقائق، حتى يفيد الحاضرين تطهير الباطن.

* ومنها: أن يصون يديه عن العبث وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة ويلتفت إلى الحاضرين التفاتاً قصداً بحسب الحاجة للخطاب.

* ومنها: أن يصون مجلسه عن اللغط، والحاضرين عن سوء الأدب في المباحثة، وإذا ظهر من أحدهم شيء في مبادىء ذلك، تلطف في دفعه قبل انتشاره، ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى، فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة،

---

(١) المجموع شرح المهذب للنووي (٦٢ - ٦٣) وتذكرة السامع لابن جماعة (٣٠ إلى ٦٣) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٢٧ إلى ١٣٣).

بل شأننا الرفق والصفاء واستفادة بعضنا من بعض واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة .

* ومنها : إذا سأل سائل عن أعجوبة فلا يسخرون منه ، وإذا سُئِل عن شيء لا يعرفه فليقل لا أعرفه أو لا أتحققه ، ولا يستنكف من ذلك ، فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم أو الله أعلم ، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم . قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص : ٨٦) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نُهينا عن التكلف[١] .

وقالوا : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري ، معناه يكثر منها .

* ومنها : أن يتواضع مع كل مسترشد سائل ويخفض له جناحه ويلين له جانبه قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١٥) .

* ومنها : أن لا يطيل مجلس الوعظ ، بل يجعله متوسطاً ، ويقتصد فيه حذراً من سآمة السامع وملله ، وأن يؤدي ذلك إلى فتوره وكسله ، عن شقيق قال : « خرج إلينا عبد الله فقال : أما أني أخبر بمكانكم فأتركم كراهية أن أُمِلَّكم . إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السأم علينا ، أو قال السآمة علينا »[٢] .

وقال الزهري : «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب»[٣] .

* ومنها : إذا أحس الواعظ بملل الناس ، روّح عنهم بالحكايات ومستحسن النوادر والإنشاءات .

قال علي بن أبي طالب : رَوِّحُوا القلوب ، وابتغوا لها طُرَف الحكمة ، فإنها تَمَلُّ كما تَملُّ الأبدان . وقال قسامة بن زهير : « روحوا القلوب تَعِ الذكر » .

---

(١) رواه البخاري (١٣ ـ ٢٦٤ ، ٢٦٥) الاعتصام : باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه .

(٢) رواه البخاري (١/١٦٢) كتاب العلم : ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا وأخرجه مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) إلا أحرفاً يسيرة ، وأخرجه أحمد في المسند (١/٣٧٧) إلا أحرفاً يسيرة .

(٣) لأنه إذا مَلّ الناس من طول المجلس تثاءبوا وتململوا وذلك من الشيطان .

* ومنها : ما سن في المجلس عند انقضائه ، من الاستغفار والحمد لله على آلائه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، وقال قبل أن يقوم سبحانك ربنا بحمدك ، لا إله إلاّ أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلاّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك** »[1] .

(١) رواه الترمذي (٣١٥/١٢) عارضه . أبواب الدعاء باب ما يقول إذا قام من المجلس وقال هذا حديث حسن غريب صحيح ورواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني في تخريج المشكاة رقم (٢٤٣٣) واللفظ الأصوات المختلفة.

أدب الخطب والخطباء(1)

قال بعض الفضلاء : أبلغ الخطب ما وافق الزمان والمكان والحال ، ففي زمن صيام رمضان مثلاً ، يبين الخطيب للناس حكمه وأحكامه والمقصود منه ، وينهاهم عن البدع التي تحدث فيه مبيناً ضررها ، وقبل عيد الفطر يبين أحكام صدقة الفطر ، ولا يحسن به أن يستبدلها ببيان أحكام الأضحية أو غير ذلك ويتركها بتاتاً ، وفي مكان تفرق أهله (يخطب بالاتحاد) ، أو تكاسلوا عن طلب العلم حثهم عليه ، أو أهملوا تربية أبنائهم (حثهم أيضاً عليها) ، إلى غير ذلك مما يوافق أحوالهم ويلائم مشاربهم ويناسب طباعهم .

يخطب في كل مكان بحسبه ، مراعياً أحوال العالم ، بصيراً بمقترفاتهم الحاصلة في خلال الأسبوع فينهاهم عنها ، وينبههم عليها متى رقي منبر الخطابة ، وعسى أن يهتدوا طريقاً قويماً . ثم قال :

كيف كانت الخطب في الصدر الأول ؟ كانت الخطب في الصدر الأول لها المكانة العالية ، والمقام الأسنى ، كانوا ينتقون من جواهز الألفاظ أعذبها وأظرفها وأحلاها ، ومن المعاني أرقاها وأدقها وأغلاها ، ومع ذلك فكانوا يضمنونها آيات من كتاب اللّٰه تعالى لتزداد حلاوةً وطلاوةً ، حتى إنه ليعاب على خطبة ليس فيها آية من القرآن الكريم ، بلغت زمن الخلفاء الراشدين عنفوان شبابها ، فإن القرآن بما اشتمل عليه من أبدع الأساليب أعانهم على الخوض في عباب التفنن في دائرة الإرشادات الجاذبة بمغناطيسها الأفئدة ، وكانوا لا يتقيدون بوقت ، بل كلما دعت الحاجة اجتمعوا ، فألقيت عليهم استشارة أو وعظ أو تذكير أو إعلان .

كان الخطيب إذا قام لأمر ما سحر الألباب بمرصعات المواعظ ، ما لا يملك

---

(1) نقله العلاّمة جمال الدين القاسمي عن بعض الفضلاء ، وأوردناه بتصرف ـ كتاب إصلاح المساجد من البدع والعوائد (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) .

بمرهفات السيوف والرماح ، يؤلف بين من تفرق ، ويسكن الفتن ، ويزيل المخاصمات ، ويقطع المنازعات ، يقيمهم إن شاء ويقعدهم إن أراد بقوة اقتداره وشدة تأثيره .

متى حدث الانحطاط في الخطب ؟ إن الخطابة قبل ، كانت بيد الخلفاء الراشدين والرؤساء العظام ، وكانت موضع احتراس وكان يخطب الخطيب قائماً (إلا خطب النكاح) ، آخذاً بيده عصا أو مِخصرة أو قناة أو غير ذلك ، فلما جاءت الدولة المروانية واستولى الترف وعَمَّ ، وتولى كرسي المملكة ، الوليد بن عبد الملك بن مروان بدأ يخطب - وأسفاه - جالساً ترفعاً منه واستهانة بهذا الموقف الجليل ، ومن هنا أخذت الخطابة في الاضمحلال والتلاشي ، فكان آخر خطيب أجاد من أئمة الإسلام المأمون بن هارون الرشيد من خلفاء الدولة العباسية ، وترك الملوك الخطابة ، ووكلوا أمرها كغيرها من الأمور لغيرهم ، فصارت منحطة القدر بعد الرفعة ، وموضع الاستهانة بعد التجلة ، تولاها أناس ما قدروها حق قدرها ، وما دروا المقصود منها بجهالتهم المطبقة ، حتى إنك لو خاطبت أحدهم عن الخطبة المتبعة وتغييرها بما يستدعيه الزمان ، ما أجابك إلا بقوله لا يمكن للنفوس الآن أن تتزحزح عن غيها ، وإن الخطب الآن هي من قبيل الرسوم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

شرط الخطيب :

يشترط في الخطيب أن يكون عالماً بعقيدة السلف الصالح ، حتى لا يزيغ ويؤذي الناس بسوء عقيدته في درك ظلمات الضلال ؛ فتسوء العقبى .

* ومن شروطه أن يكون عالماً بالسنة ، عارفاً بما صح فيها مما لم يصح ، حتى لا يكون سبباً لإذاعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الناس ، فيضل ويضلوا به .

* ومن شروطه : أن يكون عالماً بالفروع ، كي يصحح العبادات بما علمه من علم الفقه ولأنه عرضة يسأله المأمومون في الأحكام فيجيبهم عن حقيقة ويهديهم بنور الشريعة إلى صراط مستقيم ، لا يهرف ويخبط خبط عشواء في أمور الدين بجهالاته كأغلب الخطباء والأئمة اليوم ، فرحماك اللهم رحماك .

* ومن شروطه أن يكون عالماً باللغة العربية ، وبالأخص علم الإنشاء ، كي يقتدر على تأليف كلام بليغ ، وتنسيق درر مضيئة ، يشرق نور أسرارها على أفئدة السامعين ، فيسحرهم ببديع لفظه ، ويختلب ألبابهم بجواهر آيات وعظه .

* ومن شروطه أن يكون نبيهاً ، كي لا تعزب عليه شاردة إلا أحصاها ، ولا واردة إلا استقصاها ، ولينظر بمنظار التأمل والانتقاد ويغوص في بحار الشريعة ، فيستخرج لآلىء الأحكام ودررها من غير ما يعتريها تشويه ولا يشوبها كلل .

* ومن شروطه أن يكون لسناً فصيحاً ، منطلق اللسان ، معبراً عما يخطر بباله ، من المعاني الكامنة في ضميره ويبرز ما انطوت عليه السريرة ، من جليل النصائح وجميل الإرشادات ، مما يكفل السعادة للعباد .

* ومن شروطه أن يكون وجيهاً تهابه القلوب ، وتجله العيون وتعظمه النفوس ، يهابه الصغير ، ويوقره الكبير ، حتى يكون لكلامه تأثير ، ويجد له سميعاً ، يعي ما يقال ، ويعمل بما يسمع .

* ومن شروطه أن يكون صالحاً تقياً مهذباً ورعاً قنوعاً زاهداً ، غير متجاهر بمعصية ، ولا متلبساً بمخالفة ، يفعل ما يقول ، فإن ذلك أدعى إلى قبول الموعظة .

مقومات الخطيب الناجح[1]

قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه اللّه : لا شك أن الخطابة منصبٌ خطيرٌ ومرتقى صعب المنال ، لا يصل إليها طالبها بيسر بل يحتاج مبتغيها إلى زاد عظيم ، وصبر ومعاناة ، واحتمال للمشاق ليصل إلى تلك الغاية السامية .

والنبي ﷺ هو القدوة لكل ناصح وخطيب ، فمهما اقتدى الخطيب بهدي النبي ﷺ نال من النجاح بقدر موافقته وتوفيق اللّه عز وجل له .

قال الجاحظ : أوتي ﷺ المهابة ، وغَشَى اللّه كلامه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، فلم تسقط له حجة ، ولم تعثر له كلمة ، ولم يغلبه خصم ، وإنما أوتي جوامع الكلم ﷺ .

وقال الشاعر المصري أحمد شوقي في همزيته :

فـإذا خطَبْتَ فللمَنَـابِـرِ هـزَّةٌ تَعـرُو النَّديَّ وللقُلُوبِ بُكَـاءُ

يريد أن يقول إن الرسول ﷺ إذا خطب تكون للمنابر هزة تحت قدميه ﷺ ، وبتأثير بيانه وقوة كلماته هزة تعرو الندى ، وتسيطر على الحاضرين أجمعين ، (وللقلوب بكاء) ، وهذا هو الأهم والأعمق في وصف بيان الرسول ﷺ لأن غاية ما يريد الخطيب أن يبلغه هو أن لا يسمع الناس كلماته فقط ، وإنما يغرس هذه الكلمات في القلوب فتتأثر بها فتبقى فيها ، وهكذا كان ﷺ في خطبته وبيانه ، وهكذا ينبغي أن يكون الخطيب الناجح .

* من مقومات الخطيب الناجح الموهبة ، وهي فضل من اللّه عز وجل ، فليس كل

---

(١) انظر كتاب الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ـ ومجلة رسالة المسجد العدد الخامس في الدعوة والدعاة مقال تعليمي (كيف تكون الخطيب الناجح) بقلم الدكتور عبد الصبور مرزوق .
وكتاب العقد الفريد للفقيه أحمد بن عبد ربه الأندلسي .

إنسان يصلح أن يكون خطيباً ، كما أن كل إنسان لا يصلح أن يكون شاعراً ، وقد يتعلم الإنسان الخطابة ، ويتدرب عليها ، لكن الموهبة ركيزة أساسية ذات أثر بعيد في الفشل أو النجاح .

* ومن مقوماته سلامة أدوات الكلام وهي أن يسلم الخطيب من عيوب النطق المعروفة ، فلا يكون ألثغ ولا ألدغ ، وأن يكون فصيحاً طلق اللسان ، وأن يكون جهوري الصوت وإن كانت مكبرات الصوت الحديثة قد تغني الخطيب في هذه الأزمنة عن ذلك .

* ومن مقوماته السلامة من العيوب الخِلقية ، قالوا : يحسن أن يسلم الخطيب من العيوب الخِلقية ، فلا يكون أعرج أو ذا عين واحدة . قلت : وليس بشرط والعبرة أولاً بسلامة القلب وليست بسلامة الجوارح والواقع شاهد بذلك .

* ومن مقوماته دراسة أصول الخطابة : وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين تعرف الدارس طرق التأثير ، ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني أو الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها ، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ليربي ملكاته ، ويُنَمِّي استعداداته ، وهذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ، فهو يرشد دارسه إلى مناهج ومسالك ، ولا يحمله على السير فيها ، وهو يعطيه المصباح ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد ، وإن أرسطو واضع كتاب الخطابة لم يكن خطيباً ، بل قال فيه الجاحظ إنه كان بكيء اللسان .

* ومن مقوماته : سعة الثقافة فلا بد للخطيب من كثرة الاطلاع على العلوم المختلفة ، لأنه يواجه موسوعةً من البشر فقد يخطب جماعة من الناس وبين يديه العالم والأديب والطبيب والتاجر والعسكري ، ولذا جعلت الثقافة عدة لازمة وضرورية لنجاح الخطيب ، وكان السلف رضي الله عنهم يقدرون ذلك حق قدره ، ويعتبرون صعود المنبر مهمة شاقة ، لا يقوى عليها إلا أولو العزم .

وقد سئل أحد الخلفاء لماذا عجل عليك الشيب ؟

فقال : وكيف لا يعاجلني الشيب وأنا أعرض عقلي على الناس كل أسبوع مرة ! !

* ومن مقوماته : الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب ، وذلك بحفظ كثير من خطب من اشتهر بالفصاحة والبيان ، بعد الكتاب الكريم وسنّة النبي ﷺ .

* ومن مقوماته : الارتياض والممارسة فلا بد مع توفر المقومات السالفة من المعاناة والممارسة والمران ، لكي ينمي مواهبه ولو على شاطىء بحر . وقد كان شيشرون أخطب خطباء الرومان يتمرن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها، ومن الرياضة أن يتحدث بجيد الكلام أو يكتبه كثيراً ، وأن يكون في مرانه الخطابي مجاكياً البلغاء في أساليبهم ، أو مقتبساً منهم أو سائراً في مثل دربهم ، ومن الرياضة أن يعود نفسه إخراج الحروف من مخارجها ، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع .

* ومن مقوماته : المهابة : قالوا إن الخطيب لا بد أن يكون رجلاً عليه المهابة ، حتى يقع في أعين الناس وقلوبهم أحسن موقع ، والمهابة منحةٌ من اللّٰه عز وجل ، وبوسعنا أن نصل إليها إذا صلحت منا السرائر .

قال الجاحظ : إن اللّٰه تبارك وتعالى ألقى على كلام الرسول ﷺ المهابة والحلاوة .

* ومن مقوماته : قوة الشخصية وهي هبة من اللّٰه يهبها بعض الناس ، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه وعظم نفسه ، فتستمد كلماته من نفسه قوة تنفذ بها إلى القلوب ، وإذا وهب اللّٰه خطيباً تلك الروح ، قاد الجماهير وساقها بعصا موسى ، فلا تشرد منه شاردة ، وبعض الناس تكون شخصيته ضعيفة فيصعد إلى المنبر فينفصد عرقه ، وتَصْفَر سِحنته ويصيبه ما يصيبه ، وهذا شر ما يتعرض له خطيب يواجه الناس .

* ومن مقوماته : حضور البديهة ، والقدرة على امتلاك المواقف المفاجئة ، والسيطرة عليها ، ولنفرض أنك كنت تخطب ، فخرج لك رجل من آخر الصف وقال لك: اسكت، فإذا سَكَتَ الناس كلهم وسَكَتَّ أنت أيضاً فقد انتهيت وضاعت خطبتك ، ولكن إذا استطعت ببديهة حاضرة أن تتجاوز هذا الموقف ، فأنت خطيب مقتدر .

ويذكر أن عثمان بن عفان رضي اللّٰه عنه صعد المنبر ، فشردت منه الكلمات ، ففتح اللّٰه عليه بما هو أحسن من الخطبة حيث قال : (أيها الناس أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال) .

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي فحصر[1] فقال : أيها الناس إني كنت أعددت مقالاً أقوم به فيكم فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله واستغفر الله لي ولكم .

* ومن مقوماته : قوة العاطفة فلا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقاداً بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب بغير استئذان ، وكما أن الماء الذي علا سطحه ينساب في المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية والحماسة الشديدة ، فلا بد أن تكون حماسةُ الخطيب أقوى من حماسة سامعيه ليفيض عليهم .

(١) الحصر : العي في الكلام .

هدى النبي ﷺ في الخطابة

خطب ﷺ على الأرض ، وعلى المنبر ، وعلى البعير والناقة .

وكان إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول «**صبحكم ومساكم**» ، ويقول : «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» ، ويقرن بين أصبعه السبابة والوسطى ، ويقول : «**أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة**»[1] .

وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وأما قول الكثير من الفقهاء إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيدين بالتكبير ، فليس معهم فيه سنّة عن النبي ﷺ البَتة ، وسنته تقتضي خلافه .

وكان يخطب قائماً ، وفي مراسيل عطاء وغيره أنه كان ﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ، ثم قال : «**السلام عليكم**» . قال الشّعبي : (وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك)[2] .

وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : (ما أخذت (ق ، والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس)[3] .

وكان مدار خطبه ﷺ على حمد لله ، والثناء عليه بآلائه ، وأوصاف كماله

---

(١) رواه مسلم في الجمعة (٦/١٥٣) والنسائي (٣/١٨٨ ـ ١٨٩) في صلاة العيدين : باب كيف الخطبة .

(٢) حديث صحيح أخرجه عبد الرزاق (٥٢٨١) ورواه أيضاً هو وابن أبي شيبة عن أبي أسامة أنه سمع مجاهداً يحدث عن الشعبي قال : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر أقبل الناس بوجهه وقال : «السلام عليكم» قال فكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك بعد النبي ﷺ .

(٣) رواه مسلم (٦/١٥٣) في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة والنسائي (٢/١٥٧) في افتتاح الصلاة : باب القراءة في الصبح بـ(ق) .

ومحامده ، وتعليم قواعد الإسلام ، وذكر الجنة والنار والمعاد ، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه ، فعلى هذا كان مدار خطبه .

وكان يقول في خطبه : **«أيها الناس إنكم لن تطيقوا ـ أو لن تفعلوا كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا»**[1] .

وكان يخطب كل وقت بما تقتضيه حالة المخاطبين ومصلحتهم ولم يكن يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد لله ، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة ، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم ، وثبت عنه أنه قال : **«كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»**[2] .

وكان منبره ثلاث درجات ، فإذا استوى عليه واستقبل الناس أخذ المؤذن في الأذان فقط ، ولم يقل شيئاً قبله ولا بعده ، فإذا أخذ في الخطبة لم يرفع أحد صوته بشيء البتة لا مؤذن ولا غيره .

وكان إذا قام يخطب أخذ عصا فتوكأ عليها وهو على المنبر كذا ذكره أبو داود عن ابن شهاب ، وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك ، وكان أحياناً يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف ، وكثير من الجهلة يظن أنه كان يمسك السيف على المنبر ؛ إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف .

وكان إذا عرض له في خطبته عارض ، اشتغل به ثم رجع إلى خطبته ، وكان يخطب فجاء الحسن والحسين يعثران في قميصين أحمرين ، فقطع كلامه فنزل فحملهما ثم عاد إلى منبره ، ثم قال : **« صدق الله العظيم : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (التغابن : ١٥) رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما »**.

وجاء سليك الغطفاني وهو يخطب فجلس ، فقال له : **«قم يا سليك فاركع ركعتين وتجوز فيهما»** ثم قال وهو على المنبر : **«إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما»**[4] .

---

(١) قطعة من حديث رواه أبو داود في الصلاة باب الرجل يخطب على قوس وأحمد في المسند (٢١٢/٤) من حديث الحكم بن حزن الكفلي وسنده حسن .

(٢) رواه الترمذي في النكاح وأبو داود في الأدب وأحمد وقال المحقق وسنده قوي وحسنه الترمذي وغيره .

(٣) رواه الترمذي في المناقب باب مناقب الحسن والحسين ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في الجمعة ، وابن ماجة في اللباس وقال المحقق وإسناده حسن ، وحسنه الترمذي .

(٤) رواه البخاري (٣٣٦/٢ ، ٣٣٧) في الجمعة ومسلم (٨٧٥) وأبو داود (١١١٥) في الصلاة والنسائي =

وكان يقصر خطبته أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس ، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة ، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد ، ويحرضهن على الصدقة[1] .

وكان ﷺ إذا رقي المنبر يوم الجمعة أخذ بلال في أذان الجمعة ولم يكن إلا أذان واحد ، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة ، ولم يكن أحد يركع ركعتين البتة ، ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال من الأذان قاموا جميعاً فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة ، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنّة قبلها هو مذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

أما السنة بعدها فثابتة ، فقد كان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين . وكانت خطبته ﷺ بياناً لأصول الإسلام ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله ولقائه وذكر الجنة والنار وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره ، التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق ، وهي النوح على الحياة ، والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ، ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ، ويبلي التراب أجسامهم ، فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا ، وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع استفاده السامعون ، ولكن طال العهد ، وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأمور رسوماً تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع ، فنقص بل عدم حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

= (١٠٣/٣) وابن ماجة (١١١٢) ـ زاد المعاد (١/١٩٠ ، ١٩١) .

(١) روى البخاري (٢/٣٨٨) من حديث جابر بن عبد الله قال : قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن .

«من أسباب النصر والتمكين»(*)

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليماً .

وبعد ، ، ،

مهر المحبة والجنة ، بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين ، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة ، بالله ما هزلت فيستامها المبطلون ، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون .

لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد ، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن تكون نفسه الثمن ، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾ (المائدة : ٥٤) .

لما كثر الْمُدَّعُون للمحبة ، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجي ، فتنوع المدعون في الشهود ، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (آل عمران : ٣١) .

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الرسول ﷺ في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة ، وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخافُونَ لَومَةَ لَائمٍ** ﴾ (المائدة : ٥٤) .

(*) زاد المعاد – لابن القيم – حياة الصحابة – يوسف الكاندهلوي – محاسن التأويل للقاسمي – السلسلة الصحيحة للألباني .

فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون ، فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد ، فإن اللَّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين .

لَمَّا رأى التجار عظمة المشتري ، وقدر الثمن ، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد ، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع ، فرأوا من الخُسران البين والغُبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس ، تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها ، فإن فاعل ذلك معدود من جملة السفهاء ، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان ، رضاءً واختياراً من غير ثبوت خيار ، وقالوا واللَّه لا نقيلك ، ولا نستقيلك ، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا ، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) .

فَحَيْهَلَا إنْ كنتَ ذَا هِمَّةٍ ... فَقَدْ حَدَى بِكَ حَادِي الشَّوْقِ فَاطْوِ المَرَاحِلَا
وقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِم وَرِضَاهُمُ ... إِذَا مَا دَعَا لَبَّيْكَ ألفاً كَوَامِلَا
ولا تَنْظُرِ الأَطْلَالَ مِن دُونِهِم ... فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا
ولَا تَنْتَظِرْ بِالسَّيْرِ رُفْقَةَ قَاعِدٍ ... وَدَعْهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلَا
فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيُصْبِحُ ذُو الأحزَانِ فَرْحَانَ جَاذِلَا

لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام ، النفوس الأبية والهمم العالية ، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية ، وأسمع الله من كان حياً ، فَهَزَّهُ السماع إلى دار الأبرار ، وحَدَا به في طريق سيره فما حطت به رحاله إلَّا بدار القرار .

قال رسول الله ﷺ : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثُلثَي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث فإن لم يصيبوا الغنيمة تمّ لهم أجرهم »[1] .

(١) رواه مسلم - (٥١/١٣، ٥٢) الإمارة وأبو داود (٢٤٨٠) الجهاد والنسائى (١٧/٦، ١٨) الجهاد وابن ماجة (٢٧٨٥) الجهاد ، وأحمد (١٦٩/٢) .

أولياء الله عزّ وجلّ موعودون بثلاثة ، بالأجر في الآخرة والغنيمة وحلاوة النصر إن ظهروا ، وإن لم يظهروا تمَّ لـه أجرهم في الآخـرة ، فهم في الربح دائماً كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور** ﴾ (فاطر : ٢٩) .

وأعداء الله عزّ وجلّ في الخسارة دائماً قال الله عـزّ وجلّ : ﴿ **إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنفال : ٣٦) .

وقد وعد الله عزّ وجلّ أولياءَهُ بالنصر المبين ، وبالعز والتمكين ، قال عزّ وجلّ : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَـا وَيَوْمَ يَقُـومُ الأَشْهَاد** ﴾ (غافر : ٥١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ **وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ** ﴾ (الصافات : ١٧٣) .

وقال عز وجلّ : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسلي** ﴾ (المجادلة : ٢١) .

وقـال عزّ وجـلّ : ﴿ **وَعَـدَ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَـا اسْتَخْلَفَ الَّـذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ** ﴾ (النور : ٥٥) .

وبشـر النبي ﷺ أمته بـالعز والتمكين ، رغم أنـوف الأعداء والحـاسدين فقال ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيتُ مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها** »[1] .

وقال ﷺ : « **لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر** »[2] .

فما هي الأسباب عباد الله التي ينبغي علينا أن نأخذ بها ، حتى يتنزل علينا نصر الله ؟

---

(١) رواه مسلم (١٧١/٨) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢٧/٢) وصححه وابن ماجه (٢٩٥٢) وأحمد (٢٧٨٥) من حديث ثوبان وأحمد أيضاً (١٢٣/٤) من حديث شداد بن أوس . (الصحيحة ٧/١)

(٢) رواه أحمد (١٠٣/٤) وابن بشران في الأمالي (١/٦٠) والطبراني في الكبير وابن منده في كتاب الإيمان =

* أول ذلك عباد الله أن ننصر دين الله عزّ وجلّ بتطبيق شرعه على أنفسنا أولاً وذلك بتحليل حلاله وتحريم حرامه وإقامة دينه .

قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧) .

وقال عز وجلّ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٤٠) .

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما فقال : « لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ﷺ ، فإن الله عزّ وجلّ لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر ، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » .

* ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله الثبات على دين الله عزّ وجلّ :

فقد مضت سنة الله عزّ وجلّ في خلقه أن أولياءه لا يمكنون في الأرض حتى يختبروا وهذا الاختبار والابتلاء قد يطول بهم .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد : ٣١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

= والحافظ عبد الغني المقدسي في ذكر الإسلام (١٦٦/١) وقال : «حديث حسن صحيح» والحاكم (٤/٤٣٠-٤٣١) وقال : «صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الألباني : هو على شرط مسلم تحذير الساجد (١٨٨/١٨٩) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ وهو في الصحيحة رقم (٣)

مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

فالرسل هم أوثق الناس بنصر الله عزّ وجلّ ، ومع شدة الابتلاء وتأخر النصر يقولون استعجالاً لنصر الله عزّ وجلّ : متى نصر الله ؟ وقال الله عزّ وجلّ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَشَاءُ ﴾ (يوسف : ١١٠) .

وهذا الابتلاء عباد الله من أنفع الأدوية لأولياء الله عزّ وجلّ ، وقد ذكر سلطان العلماء العز بن عبد السلام من فوائد الابتلاء سبع عشرة فائدة منها :

* معرفة عز الربوبية وقهرها ، وأن الله عزّ وجلّ يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

* ومنها : معرفة ذل العبودية وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٦). فقولهم « إِنَّا لِلَّهِ » أي نحن ملك لله عزّ وجلّ ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء .

* ومنها : الإخلاص لله عزّ وجلّ ، ففي أزمة البلاء يكون العبد أقرب للإخلاص ، حتى المشركين إذا وقعوا في البلاء أخلصوا لله رب العالمين . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٥) .

* ومنها : الإنابة وهي الرجوع إلى الله عزّ وجلّ والإقبال عليه قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ (الروم : ٣٣) .

* ومنها : التضرع والدعاء ، فالعبد يكثر من الدعاء في الشدائد ، لحاجته وفقره إلى الله عزّ وجلّ . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء : ٦٧) .

* ومنها : الصبر على البلاء وهو موجب لمحبة الله عزّ وجلّ قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٦) .

وموجب لكثرة الثواب من الله عزّ وجلّ. قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠) .

وقال ﷺ : « ما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر »[1] .

* ومنها تمحيص الذنوب والخطايا قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى : ٣٠) . وقال ﷺ : « لا يَزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة »[2] .

* ومنها : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم ، فإن العبد إذا أحس بألم الابتلاء رق قلبه لأهل البلاء ورحمهم .

* ومنها : معرفة قدر نعمة العافية ، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلَّا بعد فقدها ، فلا يعرف نعمة العافية إلا من ذاق مرارة المرض .

* ومنها : ما في طيتها من الفوائد الخفية ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٦) وقال عز وجل : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَراً لَكُمْ بَلْ هوَ خَيْر ﴾ (النور : ١١) .

ومنها : أن المصائب والشدائد تمنع من الفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود لو كان فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر لما حَاجَّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطر الملك على ذلك ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال : أنا ربكم الأعلى .

قال الله عزّ وجل : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (التوبة : ٧٤) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق : ٦) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغوا في الأرض ﴾ (الشورى : ٢٦) .

* ومنها : أن العبد إذا رضي بما ابتلاه الله عزّ وجلّ به نال رضا الله عزّ وجلّ ، فإن المصائب تنزل على البر والفاجر ، فمن سخطها فله السخط ومن

---

(١) رواه البخاري (٣/٣٣٥) في الزكاة : باب الاستعفاف عن المسألة ومسلم (١٤٥/٧) في الزكاة باب فضل التعفف .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٦٤/٢) وقال حديث حسن صحيح وصححه الحاكم (٣٤٦/١) ووافقه الذهبي ، ورواه أحمد أيضاً (٢٨٧/٢، ٤٥٠) ، وروى مالك نحوه وقال الألباني: إسناده حسن مشكاة المصابيح رقم (١٥٦٧) .

رضيها فله الرضا ، والرضا أفضل من جنة الله عزّ وجلّ . قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ من اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٧٢) .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله أن نطلب العزة بما أعزنا الله عز وجل به :

قال النبي ﷺ : « واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وَعِزه استغناؤه عن الناس »[(١)] . عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له ، فنزل عنها وخلع خُفَّيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ، تخلع نعليك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ، ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك فقال : أوَّه ؟! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة ، جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ ، إنَّا كنا أذلَّ قوم ، فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة والتنازع :

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال : ٤٦) وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ﴾ (آل عمران : ١٠٥) .

ولا تجتمع كلمة المسلمين حتى يجتمعوا على الدين الكامل الذي أنزله الله على نبيه ﷺ ، وتقصير الناس في أجزاء من هذا الدين ، يؤدي إلى الفرقة والتنازع .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُم فَنَسُوا

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وخرّجه الحاكم (٣٢٥/٤) وصححه ووافقه الذهبي

﴿ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (المائدة : ١٤) .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله الزهدُ في الدنيا والرغبة في الآخرة : قال رجل للتابعين لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكنهم كانوا خيراً منكم أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة ، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول لأعداء الله : أتيتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

ومن أسباب النصر والتمكين الاستعانة على الظالمين بالدعاء :

كما كان من هديه ﷺ اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الكفر والكافرين ، اللهم إنا نجعلك في نحور أعدائك ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم ، اللهم اجعل الدائرة تدور عليهم ، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك ، اللهم فرق شملهم ، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بَدَدَاً ، ولا تُبق منهم أحداً ، اللهم احفظنا بالإسلام قائمين ، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، ولا تشمت بنا الأعداء والحاسدين ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

فضائل الصحابة رضي الله عنهم[1]

إن الحمد لله ، ونحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ،،،

نعطر مجلسنا عباد الله بذكر فضائل أصحاب محمد ﷺ ، ورضي الله عنهم أجمعين . والصحابي : هو من رأى النبي ﷺ ، أو رآه النبي ﷺ ومات على الإيمان ، وإن تخللت بينهما ردة على الراجح ، واشترط بعض العلماء في الرائي أن يكون بحيث يميز ما يرى .

قال ابن حجر رحمه الله : محل نظر ، وعمل من صنف في الصحابة ، يدل على أنه يكتفي بمجرد حصول الرؤية ، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر ، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام ، واشترط بعضهم أن يكون صحب النبي ﷺ سنةً فصاعداً ، أو غزا معه غزوةً فصاعداً ، والعمل على خلاف ذلك ، لأنهم اتفقوا على عد جمع جم في الصحابة ، لم يجتمعوا مع النبي ﷺ إلا في حجة الوداع .

قال الإمام البخاري : ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وقد وردت عباد الله الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة ، في فضائل الصحابة رضي الله عنهم :

---

(١) التبصرة لابن الجوزي - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر - شرح الطحاوية - تفسير ابن كثير .

* فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه وَأَعدَّ لهُم جنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٠) .

قال ابن كثير رحمه اللَّه : فقد أخبر اللَّه العظيم أنه رضي عن السّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب بعضهم .

* وقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْت الشَّجَرَة فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِم فَأَنْزَلَ السَّكِينَة عَليهِمَ وَأَثَابَهُم فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَة يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمَاً ﴾ (الفتح : ١٨ ، ١٩) .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وعدد المبايعين فيها من الصحابة ألف وخمسمائة ، ومن رضي اللَّه عنه لا يمكن موته على الكفر لأن العبرة بالوفاة على الإسلام .

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول ﷺ : «**لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة**»[1] .

* وقال عز وجل : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

فأثبت اللَّه عز وجل لهم الخيرية على سائر الأمم ولا شيء يعدل شهادة اللَّه تعالى لهم بذلك .

* وقال عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

والصحابة رضي اللَّه عنهم هم المشافهون بهذا الخطاب ولا يكون الأخير والشاهد إلا عدلاً .

* وقال عز وجل : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم وَأَمْوالِهِم

---

(١) رواه مسلم (١٦/٥٧ ، ٥٨) عن أم مُبشِّر الأنصارية في الفضائل : باب فضائل أصحاب الشجرة ، وأم مبشر الأنصارية هي امرأة زيد بن حارثة .

﴿يَبْتَغُون فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرونَ اللَّهَ وَرَسولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون وَالَّذِينَ تبوأوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيهِم وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَو كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر : ٨) ..

* وقال عز وجل : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَه نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ (التحريم : ٨) .

* وقال عزّ وجلّ : ﴿مُحَمَدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَاهُم رُكَعاً سُجَّداً يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّراعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح : ٢٩) .

أما الأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم :

* فمنها ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : **«يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس ، فيقال فيكم من صاحب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون لهم : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس ، فيقال فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون : نعم . فيفتح لهم»**[١] .

* ومثل هذا حديث واثلة رفعه **«لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحبني»**[٢] .

* وروى البخاري أيضاً عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»** قال

---

(١) رواه البخاري (٢/٧) في فضائل الصحابة ومسلم (١٦/٨٣ ، ٨٤) فضائل الصحابة باب فضل الصحابة رضي الله عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهو بالمسند (٣/٧) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة وقال الحافظ في الفتح وإسناده حسن .

عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة «**ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمَن**»[1] . والمراد بالسِّمن التوسع في المآكل والمشارب .

والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويطلق القرن على مدة من الزمان ، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين ، قال ابن حجر رحمه الله : ووقع في حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ، ما يدل على أن القرن مائة وهو المشهور .

واقتضى هذا الحديث أن يكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين ، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ، وإلى الثاني نحا الجمهور والأول قول ابن عبد البر ، والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ ، أو في زمانه بأمره ، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه ، لا يعدله في الفضل أحد كائناً من كان ، وأما ما لم يقع له ذلك فهو محل البحث ، والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا** ﴾ (الحديد : ١٠) .

* وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ «**لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَهُ**»[2] .

فيقول النبي ﷺ لخالد ونحوه : «**لا تسبوا أصحابي**» يعني عبد الرحمن وأمثاله لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من

---

(١) البخاري (٢٥٨/٥ ، ٢٥٩) الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، وفي فضائل أصحاب النبي وفي الرقاق وفي الإيمان ومسلم (٨٧/١٦ ، ٨٨) الفضائل : باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ورواه الترمذي في الفتن وأبو داود في السنة والنسائي في الأيمان والنذور .

(٢) رواه البخاري (٢١/٧) فضائل الصحابة : باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» ومسلم (٢٣/١٦) فضائل الصحابة : باب تحريم سب الصحابة وهو في المسند (١١/٣) والترمذي وأبي داود . والنصيف بمعنى النصف أي لو أنفق أحد من الذين أتوا بعد السابقين من الصحابة مثل أحد ذهباً ما بلغ ثواب أحدهم مد من طعام ولا نصفه .

قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ، والمقصود أنه ﷺ نهى من له صحبة متأخرة أن يسب من له صحبة متقدمة ، لامتيازهم عنهم في الصحبة ، بما لا يمكن أن يشركوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية وإن كان قبل فتح مكة ، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

* قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيِّه ﷺ .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيِّه ونقل دينه .

* وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قيل لعائشة رضي الله عنها : **«إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر فقالت: وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر»**[1] .

* وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال : لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ ، خير من عمل أحدكم أربعين سنة .

قال العلماء : ولو لم يرد شيء من الآيات والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم ، لأوجبت الحالة التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، والصبر والورع واليقين القطع بتعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع الجائين بعدهم .

---

(١) الذي رواه مسلم قال عروة : قالت لي عائشة : يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم . أما حديث جابر قال في هامش جامع الأصول : في المطبوع أخرجه رزين - جامع الأصول (٥٥٤/٨) .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله مبيناً عقيدة أهل السنّة والجماعة : (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان) .

فقوله رحمه الله : **«ولا نفرط في حب أحد منهم»** فيه رد على الشيعة في تفضيلهم علي رضي الله عنه على أبي بكر وعمر وعثمان ، وتكفيرهم الصحابة رضي الله عنهم إلا القليل ، لقد فَضَلَهُمُ اليهود والنصارى بخصلة قيل لليهود من شر أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب موسى . وقيل للنصارى من خير أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب عيسى . وقيل للشيعة من شر أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب محمد ﷺ ، ولم يستثنوا منهم إلا القليل ، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة .

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم بقية العشرة المبشرين ، ثم البدريين ، ثم أهل بيعة الرضوان ، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله رحمه الله (وحبهم دين وإيمان) لأنه موافقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ .

روى الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»**[1] .

لله دَرُّ أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها ، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها ، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها ، وخلصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها ، وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها ، فعن إبعاد

---

(١) رواه أحمد (د/٨٧) ، (٥/٥٤ ، ٥٧) في المناقب باب من سب أصحاب النبي ﷺ وعبد الرحمن بن زياد قال الذهبي لا يعرف ومع ذلك فقد صححه ابن حبان (٢٢٨٤) وحسنه الترمذي ـ شرح السنة (١٤/٧١) تحقيق شعيب الأرناؤوط . قلت قال أبو عيسى الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١٣/٢٤٤) عارضة .

مثلهم وقع نهي النبي ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ (الأنعام : ٥٢) .

صعدت صحائفهم من الأكدارِ صافِيَة ، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضَافِية ، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا مُتَجَافِيَة ، والناس في أخلاطٍ والقوم في عافية ، ففاق المولي منهم على الرئيس القرشي ، ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ (الأنعام : ٥٢) .

قال سعد بن أبي وقاص رضي اللّٰه عنه لقيت عبد اللّٰه بن جحش يوم أحد ، فقال : يا سعد ألا تدعو اللّٰه عز وجل ؟ فدعا عبد اللّٰه فقال : يا رب إن لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه أقاتله فيك ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً قلت : يا عبد اللّٰه من جَدَع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك، فتقول : صدقت .

قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط[1] .

للّٰه در أقوام تعبوا فأريحوا ، وزهدوا فأبيحوا ، جُلِّيَت أبصارهم فشاهدوا ، وأعطوا سلاح المعونة فجاهدوا ، وتأملوا الدنيا وسبروها وعرفوا حالها وخبروها .

أقبل مصعب بن عمير يوماً إلى رسول اللّٰه ﷺ وعليه قطعة من نَمِرَة قد وصلها بإهاب فقال رسول اللّٰه ﷺ : «لقد رأيت هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب اللّٰه ورسوله»[2] .

ولما كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين فضربه ابن قمئة فقطع يده ، ومصعب يقول : (وما محمد إلا رسول) ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى فضرب يده اليسرى فقطعها فحنى على اللواء وهو يقول وما محمد إلا رسول ، فقتل ولم يوجد له كفن إلا نمرة إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه فجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر .

واعلموا عباد اللّٰه أن فضائل الصحابة رضي اللّٰه عنهم ظاهرة وكان

(١) قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد (٣٠١/٩ ، ٣٠٢) .

(٢) لم أقف عليه مع كثرة البحث . نسبه صاحب موسوعة أطراف الحديث النبوي لابن سعد (٨٢/١/٣) .

لسبقهم سببان :
أحدهما : خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين .
والثاني : بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد .

كان أبو طلحة رضي اللّه عنه يقول لرسول اللّه ﷺ يوم أحد : نحري دون نحرك . وقتل يومئذٍ زوج امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت : يا رسول اللّه لا أبالي إذا سلمت من عطب .

فسبحان من خصهم بهذه الفضائل ، وحرسهم من القصور والرذائل ، وصلى اللّه على محمد وآله وأصحابه البررة وسلم تسليماً .

بـــر الوالدين[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وآله وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ،،،

قال الله تعالى : **﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَو كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ ولاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيْماً وَاخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾** (الإسراء : ٢٢) .

أمر الله عز وجل بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك فقال عز وجل : **﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾** كما قرن شكرهما بشكره فقال عز وجل : **﴿ أَنْ أَشْكُر لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾** (لقمان : ١٤) . وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل قال : **«الصلاة على وقتها»** قال : ثم أي ؟ قال : **«ثم بر الوالدين»** . قال : ثم أي ؟ قال : **«الجهاد في سبيل الله»**[2] .

والبر اسم جامع للخير ، وهو ضد العقوق ، ومعناه الصلة وفعل الخير والتوسع فيه واللطف والطاعة .

---

(١) تفسير ابن كثير ـ تفسير القرطبي ـ غذاء الألباب للسفاريني ـ فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني .

(٢) البخاري (٢/٩) مواقيت الصلاة : باب فضل الصلاة لوقتها .

وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بر الولد ، لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر ، فألزم في هذه الحالة بين مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه ، يحتاجان أن يلي منهما في الكبر ، ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه ، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر ، وكذلك طول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ، ويحصل الملل ، ويكثر الضجر ، فيظهر غضبه على أبويه ، وتنتفخ لهما أوداجه ، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر ، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم من كل عيب ، فقال : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ .

قال العلماء : إنما صارت قولة (أُفٍ) للأبوين أردأ شيء ، لأنها كلمة تقال لكل شيء مرفوض ، كما قال إبراهيم لقومه : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (الأنبياء : ٦٧) .

فهي للأبوين كفرٌ للنعمة ، وجحد التربية ، ورد الوصية التي أوصى الله في التنزيل . وقوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ والنهر هو الزجر والغلظة ، وقوله : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ أي ليناً لطيفاً ، مثل يا أبتاه ويا أماه من غير أن يسميهما ويكنيهما .

قال ابن الهداج التحبيبي : قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أمر بمزيد من الشفقة والرحمة ، وأن يكون الإنسان مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظره ، ثم قال عز وجل : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ أمر الله عز وجل عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، فينبغي على العبد أن يرحمهما كما رحماه ، وأن يرفق بهما كما رفقا به ، إذ ولياه صغيراً جاهلاً محتاجاً فآثراه على أنفسهما ، وأسهرا ليلهما وجاعا وأشبعاه ، وتعزيا وكسواه ،

فلا يجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كان فيه صغيراً ، فيلي منهما ما وليا منه ، ويكون لهما حينئذٍ فضل التقدم .

قال في تنبيه الغافلين : إنه لو لم يذكر اللّه تعالى في كتابه حرمة الوالدين ، ولم يوص بهما ، لكان يعرف بالعقل أن حرمتهما واجبة ، وكان الواجب على العاقل أن يعرف حرمتهما ، ويقضي حقهما فكيف وقد ذكر اللّه تعالى في جميع كتبه التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وقد أمر في جميع كتبه وأوحى إلى جميع رسله ، وأوصاهم بحرمة الوالدين ومعرفة حقهما ، وجعل رضاه في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إِليَّ ثُمَّ إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُون ﴾ (لقمان : ١٤) .

لما خص اللّه تعالى الأم بالحمل والوضع والرضاع ، خصها بمزيد الوصية بالبر ، وهذا يوافق ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : **« يا رسول اللّه : من أحق بحسن صحابتي ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أبوك »**[1] .

قال عياض : ذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب ، وقيل يكون برهما سواء ، ونقله بعضهم عن مالك فروى أن رجلاً قال له إن أبي ببلد السودان ، وكتب إليّ أن أقدم عليه ، وأمي تمنعني من ذلك ، فقال له أطع أباك ولا تعص أمك .

وقد سئل الليث عن هذه المسألة ، فأمره بطاعة الأم ، وزعم أن لها ثلثي البر ، وهذا يشير إلى الطريق التي لم يتكرر ذكر الأم فيها إلا مرتين ، وقد أخرج

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤٠١) الأدب : باب من أحق الناس بحسن الصحبة ومسلم (١٦/١٠٢) البر والصلة والآداب : باب بر الوالدين وأنهما أحق به .

البخاري في الأدب المفرد : «**إن اللّه يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب**»[1] .

قال ابن حجر : وجاء ما يدل على تقديم الأم في البر مطلقاً ، وهو ما أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم والبزار بإسناد حسن من حديث عائشة سألت النبي ﷺ «**أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال زوجها . قلت فعلى الرجل ؟ قال أمه**» .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت : «**يا رسول اللّه إن ابني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني فقال : أنت أحق به ما لم تنكحي**»[2] .

فتوصلت لاختصاصها به باختصاصه بها في الأمور الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ** ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، وقيل المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل ، وقوله تعالى : ﴿ **أَنِ اشْكُر لِي وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾ قيل الشكر للّه على نعمة الإيمان . وللوالدين على نعمة التربية . قال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر اللّه تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما .

وقال عز وجل : ﴿ **وإنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْس لكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفَاً** ﴾ (لقمان : ١٤) . ففي هذه الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق .

وعن أسماء بنت أبي بكر وقد قدمت عليها خالتها ـ وقيل أمها من الرضاعة ـ فقالت يا رسول اللّه إن أمي قدمت وهي راغبةٌ أفأصلها؟ قال : نعم . قيل : راغبة عن الإسلام . وقال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصلة .

---

(١) وأخرجه ابن ماجه (٣٦٦١) والحاكم (١٥١/٤) وأحمد (١٣١/٤، ١٣٢) . فى الصحيحة رقم ١٦٦٦ .
(٢) رواه أحمد وأبو داود – مشكاة المصابيح (١٠٠٨/٢) رقم ٣٣٧٨ .

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل بر الوالدين :

* منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **«لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»**[١] . وقوله : «لا يجزي» أي لا يكافئه بإحسانه وقضاء حقه .

* وأخرج البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمر قال : **«جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان فقال ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما»**[٢] .

وفي رواية عن عبد اللّه بن عمر قال : **(قال رجل للنبي ﷺ أجاهد ؟ قال : لك أبوان ؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد)** أي إن كان لك أبوان فأبلغ جهدك في برهما والإحسان إليهما فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو .

* وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن أبي بردة قال : سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن عمر رجلاً يمانياً يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول :

إني لها بعيرها المذلل إن أذعرت ركابها لم أذعر

ثم قال : يا ابن عمر أتراني جزيتها ؟ قال : لا ولا بزفرة واحدة .

* وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **« من سره أن يمد له في عمره ، ويزاد في رزقه ، فليبر والديه وليصل رحمه »** .

* وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : **«رغم أنفه ثم رغم أنفه قيل : مَنْ يا رسول اللّه ؟ قال : من أدرك والديه عنده الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة»**[٣] . ومعنى رغم أنفه : أي لصق بالرغام وهو بالتراب .

---

(١) مسلم (١٠/١٥٢) العتق : فضل عتق الوالد ، والآداب بر الوالدين وأنهما أحق به .

(٢) رواه البخاري (١٠/٤٠٣) الأدب : باب لا يجاهد إلا بإذن الوالدين ، ومسلم (١٦/١٠٣، ١٠٤) البر والصلة ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أنس .

(٣) مسلم (١٦/١٠٨) البر والصلة والآداب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها .

ومن بر الوالدين عباد الله :

* **النفقة عليهما إذا احتاجا لقول الله عز وجل : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (لقمان : ١٤) .**

* **وقوله عز وجل : ﴿ وبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾** (الإسراء : ٢٢) ، وليس من **الإحسان ولا من** المصاحبة بالمعروف ، أن يموتا جوعاً والولد موسر .

* **ومن برهما توقيرهما واحترامهما** : روى البخاري في الأدب المفرد وعبد **الرزاق والبيهقي عن هشام بن عروة عن أبيه أو غيره أن أبا هريرة أبصر رجلين فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ فقال** : أبي : فقال : لا تسمه باسمه ولا تمش أمامه ولا تجلس قبله .

وقال طاووس : من السنّة أن يوقر أربعة العالم ، وذو الشيبة والسلطان والوالد ، ومن الجفاء أن يدعو الرجل والده باسمه .

* ومن برهما دعوتهما إلى الله عز وجل : روى مسلم وأحمد عن أبي كثير السحيمي قال : **«سمعت أبا هريرة يقول ما سمع بي أحد يهودي ولا نصراني إلا أحبني ، إن أمي كنت أريدها على الإسلام فتأبى ، فقلت لها فأبت ، فأتيت النبي ﷺ فقلت ادع الله لها. فدعا فأتيتها وقد أجافت عليها الباب. فقالت يا أبا هريرة إني أسلمت . فأخبرت النبيﷺ فقلت : أدع الله لي ولأمي . فقال : «اللهم عبدك أبو هريرة وأمه أحبهما إلى الناس»** .

* ومن برهما صلة أهل ودهما : ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن من أبر البر صلة أهل ود أبيه بعد أن يولي** »[1].

* ومن برهما الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما بعدهما .

عن محمد بن سيرين قال : كنا عند أبي هريرة ليلة فقال اللهم اغفر لأبي هريرة ولأمي ولمن استغفر لهما قال محمد : فنحن نستغفر لهما حتى ندخل في دعوة أبي هريرة .

وروى مالك في الموطأ وابن ماجة والبخاري في الأدب المفرد عن أبي

(١) مسلم (١٦/ ١١٠) البر والصلة والآداب : تفسير البر والإثم .

هريرة قال : «ترفع للميت بعد موته درجته فيقول : أي رب أي شيء هذه ؟ فيقال : ولدك استغفر لك»[1] .

* ومن برهما قضاء دينهما والحج عنهما والوفاء بنذرهما :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : «أتى النبي ﷺ رجل فقال : إن أبي مات وعليه حجة الإسلام أفأحج عنه ؟ قال : أرأيت لو أن أباك ترك ديناً أقضيته عنه ؟ قال : نعم . قال : فاحجج عن أبيك»[2] .

أخرجه الشافعي والنسائي وابن ماجة والدارقطني .

ووردت الأحاديث كذلك في النهي عن عقوق الوالدين وبيان أن العقوق من أكبر الكبائر :

والعقوق مشتق من العق ، وهو القطع ، والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل ، إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد .

وضبطه ابن عطية بوجوب طاعتهما في المباحات فعلاً وتركاً ، واستحبابها في المندوبات وفروض الكفاية كذلك ، ومنه تقديمهما عند تعارض الأمرين ، كمن دعته أمه ليمرضها مثلاً بحيث يفوت عليه فعل واجب إن استمر عندها ، ويفوت ما قصدته من تأنيسه لها وغير ذلك لو تركها وفعله ، وكان مما يمكن تداركه مع فوات الفضيلة كالصلاة أول الوقت أو في الجماعة .

* تنبيهات :

* الأول : قال الحافظ ابن الجوزي في قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّينِ . . ﴾ (الممتحنة : ٨) .

الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين ، وجواز برهم ، وإن كانت الموالاة منقطعة ، وبهذا تعلم أنه لا يجب طاعة الأب المشرك كالمسلم ، لا سيما في ترك النوافل والطاعات ، قال في الآداب الكبرى : وهذا أمر ظاهر ولذا قال الخطابي : لا سبيل للوالدين الكافرين في منعه من الجهاد

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠) وأحمد (٢/٥٠٩) وابن أبي شيبة في المصنف والأصبهاني في الترغيب والبغوي في شرح السنة ، وقال الألباني : وأما قول البوصيري « إسناده صحيح » ففيه تساهل . الصحيحة (٤/١٢٩) رقم ١٥٩٨ .

(٢) قال الحافظ في التلخيص : وإسناده ضعيف (٢/٢٢٥) .

فرضاً كان أو نفلاً ، وطاعتهما حينئذٍ معصية للّه معونة للكفار ، وإنما عليه أن يبرهما ويطيعهما فيما ليس بمعصية .

* الثاني : ذكر شيخ الإسلام أنه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد بنكاح من يريدها ، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقاً .

* الثالث : قال في الآداب الكبرى : فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب ، ذكره أكثر أصحاب الإمام أحمد . وقد سأل رجل الإمام أحمد فقال إن أبي يأمرني أن أطلق امرأتي . قال لا تطلقها . قال أليس عمر أمر ابنه عبد اللّه أن يطلق امرأته ؟ قال : حتى يكون أبوك مثل عمر .

* الرابع : قال الشيخ موفق الدين في حج التطوع ، إن للوالد منع الولد من الخروج إليه ، لأنه له منعه من الغزو وهو من فروض الكفايات .

* الخامس : ينبغي احترام المعلم وتوقيره وقد ذكر بعض الشافعية أن حقه آكد من حق الوالد ، لأنه سبب لتحصيل الحياة الأبدية والأب سبب لحصول الحياة الفانية ، وقد قال علماء المصطلح : الأشياخ آباء في الدين .

* السادس : ذكر الإمام ابن عقيل رحمه اللّه أنه كما يجب الإغضاء عن زلات القرون الثلاثة الذين قال النبي ﷺ : «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[١] .

وإذا أسميناهم بالوالدين يجب توقيرهم واحترامهم كما في الوالدين .

وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) البخاري (٣/٧) فضائل أصحاب النبي ﷺ عن عمران بن حصين .

من شمائل المصطفى ﷺ[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُون ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خلَقَكُم مِنْ نفْسٍ وَاحِدةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّه كانَ عَلَيْكُم رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

اعلموا عباد الله أن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس خلالاً ، وأفضلهم حالاً ، وأفصحهم مقالاً ، وقد امتن الله عز وجل علينا ببعثته فقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ

---

(١) مختصر من كتاب الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام للإمام القرطبي ، وكتاب الشمائل للترمذي ومختصر الشمائل للألباني .

رؤوفٌ رحِيم ﴾ (التوبة : ١٢٨) وزكاه الله عز وجل فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

ثم أمرنا الله عز وجل بالاقتداء به ﷺ ، والاهتداء بهديه ، والتخلق بأخلاقه ، فقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللّه أُسْوَةٌ حَسنةٌ لِمَن كَان يَرْجُو اللّهَ وَالْيومَ الآخِرَ وذَكر اللّه كَثِيراً ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

أما كمال خلقته وجمال صورته ﷺ فشيء معلومٌ لا يُجهل ، معروفٌ لا يُنكر ، فقد كان ﷺ أزهر اللون أبيض مستنير مائل إلى الحمرة ، واسع الجبين ، أدعج العينين (الدعج : شدة سواد العينين مع سعتهما) وقيل : أكحل ، أهدب الأشفار[١] ، مفلج الأسنان ، كث اللحية تملأ صدره ، عظيم المنكبين ، رحب الكفين والقدمين ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، رجل الشعر[٢] ، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه .

روى البخاري عن البراء بن عازب وسئل أكان رسول الله ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا . بل مثل القمر[٣] .

وروى يعقوب بن سفيان عن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للرُّبَيع بنتُ مُعَوِّذٍ : صفي لي رسول الله ﷺ قالت : يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة .

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يضرب شعره إلى منكبيه[٤] .

قال ناعته ما رأيت أحداً في حلة حمراء مرجلاً ، أحسن منه ﷺ ، كأن الشمس تجري في وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ في الجد ، وأجمل الناس من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

---

(١) أي طويل الأشفار .

(٢) في شعره حجونة أين تثن قليل .

(٣) البخاري في صفة النبي والترمذي في المناقب برقم ٣٦٤٠ قال الألباني وكذا الدارمي (١/٣٢) والطيالسي (٢٤١١) وأحمد (٤/٢٨١) وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » - مختصر الشمائل (٢٧) .

(٤) البخاري (١٠/٣٥٦) اللباس : باب الجعد ، ومسلم (١٥/٩٢) الفضائل : باب صفة شعر النبي ﷺ .

قال ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، طيب الرائحة والعَرف ، ولقد كان ﷺ يعرف برائحته وإن لم ير ، ولقد كان يضع يده على رأس الطفل رحمة له فكانت تنم عليه رائحة طيبة ﷺ .

وأما فصاحة لسانه ﷺ :

فقد أطل من الفصاحة على كل نهاية ، وبلغ من البلاغة كل غاية ، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وبدائع الحكم فلقد كان يخاطب كل حي من أحياء العرب بلغتهم ، مع أنه إنما نشأ على لغة بني سعد وقريش ، وكان يعرف لغات غيرهم ، حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون : ما رأينا بالذي هو أفصح منك .

وأما نسبه ﷺ .

فمعلوم لا يجهل ، ومشهود لا ينكر ، جده الأعلى إبراهيم ، والأقرب عبد المطلب ، كابراً عن كابر ، وشريفاً عن شريف ، فهم بين أنبياء فضلاء ، وبين شرفاء حكماء ، فهو ﷺ من خير قرون بني آدم ، وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم ، ومن ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاه ﷺ من بني هاشم ، فهو خيار من خيار من خيار ، وكذلك الرسل ﷺ ، تبعث في أشرف أنساب قومها ، ليكون أميل لقلوب الخلق إليهم .

وأما عزة قومه ﷺ :

فقد كانوا في جاهليتهم لم ينلهم سباء ، ولا ظفرت بهم أعداء ، ولا دخلوا في أغلب أزمانهم تحت قهر غيرهم ، بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر والمفاخر والمآثر ، هم أوفر الناس عقولاً ، وأقلهم فضولاً ، وأفصح الناس مقالاً ، وأكرمهم فعالاً ، الشجعان الكرماء ، والحكماء الأدباء .

وأما أرضه ﷺ :

فناهيك عن أرض أسس بقيتها إبراهيم الخليل ، وأمره بأن يدعو الناس إليها الملك الجليل ، وتولى عمارتها والمقام بها النبي إسماعيل ، وتوارثها الأشراف جيلاً بعد جيل ، وكفى بلدته ﷺ شرفاً ما فعل الله

بملك الحبشة الذي جاء لهدمها ، فلما قرب منها وعزم على هدمها ووجه فيله عليها ، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ (الفيل) .

وأما شريعته ﷺ : فانقسمت إلى أمور تعبدية مثل الصلاة والصوم والحج ، وأمور مصلحية وهي التي يعبر عنها بالقوانين الشريعية ، ويقضي العقلاء منها العجب ، وقد أطل منها ﷺ على أعلى المراتب والرتب ، فقد اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها ، واعتبر أصول مفاسد العالم وحرمها .

وأصول المصالح إنما هي خمسة : المحافظة على صيانة الدماء في أهبها ، والأموال على مُلاكِها ، والأنساب على أهليها والعقول على المتصفين بها ، والأديان التي بها حياة النفوس وزكاتها .

فأصول الشريعة وإن تعددت صورها فهي راجعة إلى هذه الخمسة .

أما الدماء : فحقنها بأن شرع أن من قتل يقتل ، ومن جرح يجرح ، ومن فقأ عين إنسان فقئت عينه . فإذا علم القاتل أنه يفعل به مثل ما فعل انكف عن القتل ، فحصلت حياة النفوس ، وصيانة الدماء ، ولأجل ذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

وأما الأموال : فصانها على ملاكها بأن شرع قطع يد السارق للنصاب ، وقتل المحارب ، وغرم مثل المتلف أو المغصوب ، إذا كان مما له مثل ، فإذا علم السارق والمحارب أنهما يعاقبان بما يناسب جنايتهما ارتدعا وانكفا فانحفظت الأموال .

وأما العقول : فحرم استعمال ما يؤدي إلى تلفها وذهابها كالخمر ، وذلك أن مناط التكليف العقل ، فإذا أذهبه الإنسان بالخمر وما في معناه فقد تعرض لإسقاط التكليف ، وللكفر بالله تعالى بل لكل المفاسد .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُنتَهُون ﴾ (المائدة : ٩٠ ، ٩١) .

وأما حفظ الأنساب وصيانة اختلاط المياه في الأرحام : فشرع النكاح ، وحرم السفاح ، لينتسب كل ولد لوالده ، ويتميز الولي عن مضاده ، ولينضاف كل إلى شيعته ، ويتحقق نسبته بقبيلته ، ولأجل هذا قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ (الحجرات : ١٣) .

واو لم يكن هذا لارتفع التعارف ولم يسمع ، ولاتسع خرق لا يرقع .

وأما المحافظة على الأديان وصيانتها : فهو المقصود الأعظم ، والمستند الأعصم ، فحرم الكفر والفسوق والعصيان ، وأوجب الطاعات والإيمان وأوجب قتل المرتد وتوعده بالعذاب الدائم والهوان .

ولا يخفى على من معه أدنى مُسكة ، إذا تأمل بأدنى فكرة أن الإيمان بالله رأس المصالح والخيرات ، والكفر رأس المقابح والمهلكات ، ولأجل وجوب الإيمان وتحريم الكفران أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ولأجل ذلك قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون مَا أُرِيد مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوة الْمَتِين** ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

وأما صبره وحلمه ﷺ :

فيكفيك من ذلك أنه كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه ، فشق ذلك على أصحابه ، فقالوا له : لو دعوت الله عليهم . فقال : «**إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة**»[1] ، ثم قال : «**اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون**» ، فانظروا عباد الله في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا ، وشفع لهم ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله «قومي» ثم اعتذر عنهم لجهلهم فقال : «فإنهم لا يعلمون» .

وكذلك جاء أعرابي جلف جاف ، وكان على النبي ﷺ «برد» غليظ

(١) وقال الألباني : وكسر رباعيته وشج رأسه ثابت فى مسلم (١٧٩/٥) من حديث أنس ورواه البخارى معلقاً – فقه السيرة (٢٧٥) بتحقيق الألباني .

الحاشية ، فجذبه الأعرابي بردائه جبذاً شديداً حتى أثر حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد احملني على بعير من مال الله الذي بيدك فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي ﷺ وقال المال مال الله وأنا عبده ثم قال له : «لم فعلت بي ما فعلت ؟ قال كأنك لا تكافىء بالسيئةِ السيئةَ فضحك رسول الله ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر» .

وكذلك قال له آخر : اعدل يا محمد فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقال النبي ﷺ : «ويلك إن لم أعدل أنا فمن يعدل ؟ أيأمنني الله على خزائنه ولا تأمنوني »[1] .

قال بعض الصحابة : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله . وما ضرب خادماً ولا امرأة .

فقد كان ﷺ أحلم الناس عند مقدرته ، وأصبرهم على مكرهته ، وامتثل أمر الله حيث قال لـه : ﴿خُذ الْعَفْوَ وأْمُر بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف : ١٩٩) .

وحيث قال له : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة : ١٣) .

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكبر وحسبك أن الله خيره أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً .

قال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا ، فقمنا له فقال : «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»[2] وقال : «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦/٦١٧، ٦١٨) المناقب: علامات النبوة في الإسلام وفي فضائل القرآن وفي استتابة المرتدين، ومسلم (٧/١٥٩) الزكاة: باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) رواه أبو داود (٥٢٠٨) الأدب وضعفه الألباني لكن المعنى صحيح وقد ثبت النهى فى صحيح مسلم (٤١٣).

(٣) رواه ابن سعد عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٦١) رقم ٨ .

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبيد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس .

وقال ﷺ : «**لا تطرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[1] .

وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السخنة فيجيب[2] .

وقد حج ﷺ وكان عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم[3]. هذا كله وقد أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها وألقت إليه أفلاذ كبدها فلم يلتفت إليها ولا عبأ بها . وكان ﷺ في بيته في مهنة أهله ، يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقم البيت ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم .

أما خلقه ﷺ :

فيكفيه قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

عن سعد بن هشام قال : (سألت عائشة أم المؤمنين فقلت أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ فقالت أما تقرأ القرآن ؟ فقلت بلى فقالت : كان خلقه القرآن)[4] .

ومعنى هذا أنه كان عليه الصلاة والسلام مهما أمره القرآن امتثله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الأخلاق العظيمة ، التي لم يكن

---

(١) البخاري (٤٧٨/١) الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾ (مريم : ١٦)، والإطراء . مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه وذلك أن النصارى أفرطوا في مدح عيسى وإطرائه بالباطل ، وجعلوه ولداً ، فمنعهم النبي ﷺ من أن يطروه بالباطل .

(٢) رواه البخاري في البيوع برقم ١٠٤٦ والنسائي في البيوع وابن ماجه في « الأحكام » والترمذي في البيوع برقم ١٢١٥ ـ مختصر الشمائل (رقم ٢٨٧) والإهالة السخنة الدهن التي تغير ريحها من طول المكث .

(٣) رواه الضياء في المختارة من طريق أنس وله شاهد عن ابن عباس ورواه البخاري من طريق أخرى عن أنس مختصراً ـ مختصر الشمائل (٢٨٨) .

(٤) رواه أحمد (٩١/٦، ١٦٣) والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٧/١) رقم ٣٠٨ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٨/٤) .

أحد من البشر ولا يكون على أجمل منها ، وشرع له الدين العظيم ، الذي لم يشرع لأحد قبله ، وهو مع ذلك خاتم النبيين، فلا رسول بعده ولا نبي ﷺ .

فكان فيه من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح والرحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يُحد ولا يمكن وصفه .

روى البخاري عن البراء بن عازب قال : «**كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً**»[١] .

ورواه مسلم بلفظ «**كان رسول اللّه ﷺ احسن الناس خلقاً**»[٢]

وروى مسلم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : «**ما ضرب رسول اللّه ﷺ بيده شيئاً قط ، لا عبداً ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل اللّه ولا نيل منه شيء فينتقم من صاحبه ، إلا أن يُنتهك شيء من محارم اللّه ، فينتقم للّه عزّ وجل**»[٣] .

وروى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو قال : «**لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً**»[٤] .

وفي صحيح مسلم وعن أنس قال : «**لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بنا إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه إن أنساً غلام كيس ، فليخدمك . قال فخدمته في السفر والحضر ، واللّه ما قال لي لشيء صنعه لم صنعت هذا هكذا ، ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا**»[٥] .

---

(١) الذي في صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنه خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير (٦/٥٦٤) المناقب: باب صفة النبي ﷺ .

(٢) مسلم (١٥/٧١) الفضائل: باب حسن خلقه ﷺ .

(٣) مسلم (١٥/٨٤ ، ٨٥) الفضائل: باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله .

(٤) مسلم (١٥/٧٨) الفضائل: كثره حياته ﷺ ، البخاري (٦/٥٦٦) المناقب: باب صفة النبي ﷺ .

(٥) مسلم (١٥/٧٠) الفضائل: باب حسن خلقه ﷺ .

من شمائل المصطفى ﷺ[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

اللهم صلِّ على محمد النبي الأمي ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وبعد ، ، ،

فهذه تكملة عباد الله لشمائل المصطفى ﷺ .

أما عدله وصدقه وأمانته وصدق لهجته ﷺ : فكان ﷺ آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان .

اعترف بذلك محادوه وعداته ، وكان سمى قبل النبوة (الأمين) ؛ وذلك لما جعل الله فيه من الأخلاق الصالحة .

ومما يدل على ذلك ، أن قريشاً لما بنت الكعبة ، أختلف فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ؟ فحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا بالنبي محمد ﷺ داخلاً ، فقالوا هذا محمد . هذا الأمين قد رضينا به ، وذلك قبل أن يبعث .

ولقد اجتمع الأخنس بن شريق ، مع أبي جهل يوم بدر ، وكلاهما مخالف له وعدو له ، قد أجمع على قتله وقتاله ، فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، فأخبرني عن محمد أصادق أم

(١) مختصر من كتاب الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام للإمام القرطبي. وكتاب الشمائل للترمذي ومختصر الشمائل للألباني .

كاذب ؟- فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط .

فاعترف أعداؤه بمناقبه ، ولا يقدرون على إنكار شيء من فضائله ، وأدل دليل على عدله ، وعظيم تواضعه وفضله ، أنه كان قد انتهى به الأمر إلى أن تهابه الملوك ، وتفرق منه الجبابرة ، ومع ذلك فإنه كان يوفي لكل ذي حق حقه ، ويعرف لذي الفضل فضله ، حتى كان يقول : «**إني أريد أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في أهل ولا مال**» ولأجل ذلك أقاد عكاشة بن محصن من نفسه ، وذلك أنه ﷺ ضربه بقضيب في ظهره غير قاصد لضربه ، فقال له عكاشة إنك قد أوجعتني فأقدني ، (أي مَكِنّي منك حتى أضربك مثلما ضربتني) فكشف له عن ظهره وناوله القضيب وقال : (اضرب) فأكب عكاشة على ظهره يقبله وقال : إنما أردت أن يمس جلدي جلدك .

وأما كثرة جوده وكرمه : فشيء معلوم من شيمه ، فلقد تواتر أنه كان أكرم الناس ، وأجودهم ، حتى أنه ما سئل شيئاً قط فمنعه ، إذا كان ذلك الشيء لا يمنع شرعاً .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : كان رسول الله أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[١] .

وروى مسلم وأحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه . قال : (فأتاه رجل فأمر له بشاءٍ كثير بين جبلين من شاء الصدقة . قال فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي ما يخشى الفاقة) .

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا) .

وكان ﷺ ربما كان السائل لا يجد عنده شيئاً ، فيأخذ له بالدين ويعطيه السائل - حتى يقضيه النبي ﷺ .

---

(١) البخاري (١١٦/٤) الصوم : باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، ومسلم (٦٨/١٥، ٦٩) الفضائل : باب جوده ﷺ .

وكان معروفاً من شيمه ﷺ قبل بعثته ، حتى قالت له خديجة رضي اللّه عنها : إنك لتحمل الكَلَّ ، وتقري الضيف ، وتُكسب المعدوم ، وتُعين على نوائب الدهر .

وأما شجاعته ونجدته ﷺ : فكان منها بالمكان الذي لا يجهل ، وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل ، فقد كان مارس الضراب ، ووقف مواقف الصعاب ، لا يبالي بكثرة العدد ، ولم يفر قط أمام أحد ، وما من شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وإن كان له بعدها كرة إلا هو ﷺ ، فلم يدبر قط منهزماً ولا فارق مكرهاً ملتزماً .

كان علي بن أبي طالب يقول : كنا إذا اشتد البأس وحميت الحرب اتقينا برسول اللّه ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول اللّه ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، ولقد كانت الصحابة تقول إن الشجاع منا للذي يقوم بجانبه يستتر به .

وقيل لـ (أنس) أفررتم يوم حنين عن رسول اللّه ﷺ فقال : لكن رسول اللّه ﷺ لم يفر .

ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب»[1]

قيل : فما رؤي يومئذٍ أحد كان أجرأ منه ولا أشد ، وقد روي عنه أنه نزل عن بغلته متوجهاً نحو العدو .

وقال العباس بن عبد المطلب : لما التقى المسلمون والكفار يوم حنين ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي ﷺ يركض بغلته نحو الكفار قال ابن العباس وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أنس قال : كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات

---

(١) رواه البخاري (٨/٢٧ ، ٢٨-)- المغازي : باب قول الله تعالى : ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ ومسلم (١٢/١١٧ ، ١١٨) الجهاد : باب غزوة حنين والترمذي في الجهاد .

ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول اللّٰه ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا . قال : وجدناه بحراً أو إنه لبحر[1] (والبحر الواسع الجري) قال : وكان فرساً يبطأ .

وأما وفاؤه بالوعد :

فلا يتمارى فيه إلا خسيس وغد ، فقد كان ﷺ أحفظ الناس بعهد ، وأوفاهم بميثاق ووعد ، وأحسنهم جواراً ، وأصدقهم قولاً وأخباراً ، وكان المعلوم من سيرته ﷺ أنه كان يعقد العهود والمواثيق بينه وبين عداته ، وغيرهم فيفي بها ويؤذنهم بانقضائها عند تمامها ، ولم يغدر قط في شيء منها ، ولقد كان هذا معروفاً عند أعدائه ، كما هو معروف عند أوليائه .

ولما سأل هرقل ملك النصارى كفار قريش عن صفات النبي ﷺ قال : فهل يغدر ؟ قالوا : له لا . فقال لهم : كذلك الرسل لا تغدر[2] وكيف يغدر ﷺ وهو يقول : «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به يقال هذه غدرة فلان**»[3] .

ولقد جاءه المغيرة بن شعبة مسلماً ، وجاء معه بمال قوم من الجاهلية كان قد صحبهم ثم قتلهم وأخذ أموالهم . فقال له النبي ﷺ : «**أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء**» .

ولما بلغ ملك عمان أن رسول اللّٰه ﷺ يدعوه إلى الإسلام قال : واللّٰه لقد دلني على هذا أن هذا نبي ، أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يَغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهود ، وينجز الموعود ، أشهد أنه نبي .

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ٦٧، ٦٨) الفضائل: باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب واللفظ له والبخاري (٦/ ٥٨) الجهاد باب اسم الفرس والحمار باختصار وأبو داود والترمذي .

(٢) قصة هرقل مع أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه في كتاب الوحي من صحيح البخاري (١/ ٣١، ٣٢، ٣٣) .

(٣) رواه مسلم (١٢/ ٤٣) الجهاد: باب تحريم الغدر واللفظ له والبخاري (١٣/ ٦٨) الفتن: باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال خلافه ورواه أحمد (٢/ ٤٨، ٩٦) .

وأين هذا عباد اللّه مما يحكي اليهود والنصارى في كتبهم ، من أن موسى عليه السلام لما أراد الخروج من مصر استعار حُلِيَّ بني إسرائيل ، ثم فر بها ليلاً .

وعند الانتهاء إلى هذا المقام ، يعلم العاقل ما في كتب القوم من الأباطيل والأوهام ، وموسى عليه السلام مبرأ عن النقائض والآثام .

ومن وفائه بالعهد وقيامه في حفظه بالحد ، أنه قدم عليه وفد النجاشي فقام ﷺ يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نحن نكفيك ، فقال : « **إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم** » .

وحقيقة الوفاء بالعهد تتميم ما ربط من العقد ، ومراعاة ما تقدم من الود ، ومكافأة من له يد ، وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه لاينازعه في ذلك أحد .

وأما حسن سمته وتؤدته وكثرة حيائه ومروءته .

فشيء لا يجحد ولا يجهل ، ولا يلحقه في شيء من ذلك أحد .

كان ﷺ كثير الصمت والوقار ، طويل الإطراق والاعتبار ، تكسو هيبة وقاره جلساءه، حتى إذا جلسوا بين يديه ، كأن على رؤوسهم الطير إعظاماً له وهيبة منه .

مجلسه أوفر المجالس ، لا يسمع فيه صخب الأصوات ، ولا اختلاط اللغات ، ليس فيه مراءٌ ولا جدال ، ولا للهجر والفحش فيه مجال ، لا تؤبن في مجلسه الحرم ، ولا يغض فيه من الأقدار والقيم ، بل كان مجلس علم ، وأصحابه يعظمون في مجلسهم معه حرمات اللّه ، ويتعلمون منه أحكام اللّه ، فتارة يعلمهم بأمور الآخرة كأنهم ينظرون إليها ، وأخرى يعلمهم أحكام شريعته كي يعملوا بها .

روى البخاري عن أبي سعيد قال : كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها[1] .

---

(١) رواه البخاري (١٠/٥٢١) الأدب : باب الحياء ومسلم (١٥/٧٨) فضائل النبي ﷺ : باب كثرة حيائه ﷺ .

وروى أبو داود عن عائشة قالت : «**كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل ما بال فلان يقول . ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا وكذا**»[١]

وروي في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال : «**لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ شيئاً إني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر**»[٢] .

وروى البخاري عن عائشة : «**أن رسول اللّه ﷺ كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه**»[٣].

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : «**ما عاب رسول اللّه ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه**»[٤].

وكان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه ، وربما تكلم بالكلمة ثلاثاً حتى تفهم عنه ، وكان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه، وكان إذا مر بقوم يسلم عليهم ثلاثاً ، وكان ﷺ يحافظ على مروءته، وعلى استقامة حالته ، وتحسين هيئته ، يمشي هوناً كأنما ينحط من صبب .

وكان ﷺ يحب الطيب وقال ﷺ : «**حُبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[٥] .

وكان يستعمل السواك ﷺ وخصال الفطرة .

وأما خوفه من اللّه تعالى واجتهاده في عبادته : فقد بلغ من ذلك إلى حد لم يبلغه أحد من الخليقة ، وذلك أن اللّه تعالى كلفه من وظائف العبادات ما لم يكلف أحداً على الحقيقة ، وهو مع ذلك لا يقصر في شيء منها ، بل كان يبذل غاية اجتهاده ووسعه في أدائها ، فمن العبادات التي كلف بها تحمل أعباء الوحي ومشقة ثقله ، فقد كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد . فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

---

(١) رواه أبو داود عن عائشة وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٢١٣/٤) رقم ٤٥٦٨ .

(٢) أخلاق النبي ﷺ وأخرجه أبو داود (٤٨٦٠) والترمذي (٣٨٩٣) والوليد بن أبي هشام مجهول هامش شرح السنة (١٤٨/١٣) تحقيق شعيب الأرناؤوط .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧/٦) المباحث .

(٤) رواه البخاري في الأطعمة: باب ما عاب النبي ﷺ طعاماً، ومسلم في الأشربة : باب لا يعيب طعاماً .

(٥) رواه النسائي (٦١/٧) عشرة النساء ، وأحمد (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥) والحاكم (٨٦٠/٢) النكاح وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه الألباني .

ولأجل هذا قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ (المزمل : ٥) .

فكان ﷺ يعرض نفسه ودينه على قبائل العرب وعلى وفودها إذا قدموا مكة لمواسم الحج ، فيعيب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، فيردون عليه قوله ، ويكذبونه ، ويسبونه ، ويؤذونه بأقصى ما يمكنهم من أنواع الأذى ، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه على اللّه ، فلسان حاله ينشد .

لا أبالي إذا رضيت إلٓهي   أي أمر من الأمور دهاني

فأقام على ذلك بمكة ثنتي عشرة سنة ، يدعو الناس من غير قتل ولا قتال ، وذلك كله ليظهر الإسلام ، وتنتشر دعوته ، لئلا يكون لأحد حجة على اللّه ورسوله .

وبعد ذلك أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة ، ففارق أهله وعشيرته وحاله وماله وولده وبلده ، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك في ذات اللّه ، فترك كل ذلك إلى اللّه فوقع أجره على اللّه .

فلما حل بالمدينة افترض اللّه عليه القتال ، فقاتل في ذات اللّه جميع من كفر باللّه غير مقصر في ذلك ولا مفرط بل جادا مجتهداً ، حتى أظهر اللّه دينه وإن رغمت أنوف الجاحدين . وفي كل ذلك الزمان كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها ، فصلى حتى تورمت قدماه ، وصام حتى كان القائل يقول لا يفطر لكثرة ما كان يرى من صومه ووصاله .

وكان يذكر اللّه ويعظمه ويُمَجِدُه ويشكره على كل أحواله من غير تقصير ولا فتور ، ولا تشغله عبادة عن عبادة ، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر .

وكان عمله دائماً ، وكذلك كان يقول ﷺ : «**أحبُّ الأعمال إلى اللّه أدْوَمُها وإن قَل**»[١] فكان يراعي أنفاسه مع اللّه لا يضيع شيئاً مما كلفه خوفاً من اللّه وكان يقول ﷺ : «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[٢] .

---

(١) رواه البخاري بمعناه في كتاب التهجد : باب ما يكره من التشدد في العبادة ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها عن عائشة بلفظ : «أحب العمل إلى اللّه أدومه وإن قلّ» .

(٢) رواه مسلم (٦/٧٢) الصلاة : باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل واللفظ له . ورواه البخاري =

وكان يقول : «والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[1] .

ووصف خوفه يطول ، ومعرفة ذلك من حاله لا ينكره عليم ولا جهول إذا كان من أهل الإنصاف والعقول .

وعلى الجملة فمناقبه الشريفة لا تحصى ، وما خص به من الأخلاق الكريمة عديد الحصى ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

وما عظمه العظيم فهو عظيم ، وكيف لا يكون كذلك وقد بعثه الله متمماً لمكارم الأخلاق .

(١/ ١٠١) الإيمان : باب أحب العمل إلى الله أدومه . ورواه النسائي وأبو داود ومالك في الموطأ .

(١) رواه البخاري في النكاح: باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ ومسلم في الصيام وأحمد (٦/ ٦٧ ، ١٣٣) وأبو داود في الصوم ومالك .

فضائل شهر رمضان[1]

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَموتُنَّ إلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونْ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أيُها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمَالَكُمْ وَيَغْفِر ذُنُوبَكُم وَمن يُطِع اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ الأحزاب: ٧٠، ٧١).

أما بعد ،،،

(فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) .

ثم أما بعد ،،،

قال الله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيه القُرْآن هُدَىً لِلْنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا

(١) غالية المواعظ للألوسي ـ اللطائف لابن رجب الحنبلي ـ اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان لإبراهيم بن عبيد ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني .

﴿الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ (البقرة : ١٨٥) .

يا من طالت غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة .

يا من دامت خسارته ، قد أقبلت أيام التجارة الرابحة .

من لم يربح في هذا الشهر ، ففي أي وقت يربح .

من لم يقرب فيه من مولاه فهو على بعده لا يبرح .

عباد اللّه هبت على القلوب نَفْحَةٌ من نفحات نَسيم القُرب ، سعى سِمسار المواعظ للمهجورين في الصلح ، وصلت البِشارة للمنقطعين بالوصل ، وللمذنبين بالعفو ، والمستوجبين النار بالعتق .

لما سُلْسِل الشيطان في شهر رمضان ، وخمدت نيران الشهوات بالصيام ، انعزل سلطان الهوى ، وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل ، فلم يبق للعاصي عذر ، يا غيومَ الغفلة عن القلوب تقشعي ، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي ، يا صحائف أعمال الصائمين ارتفعي ، يا قلوب الصائمين اخشعي ، يا أقدام المتهجدين اسجدي لربك واركعي ، ويا عيون المجتهدين لا تهجعي ، يا ذنوب التائبين لا ترجعي ، يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء النفوس اقلعي ، يا خواطر العارفين ارتعي ، يا همم المحبين بغير اللّه لا تقنعي ، قد مدت في هذه الأيام ، موائد الإنعام للصوام ، فما منكم إلا من دعى ، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (الأحقاف : ٣١) .

فطوبى لمن أجاب فأصاب، وويل لمن طرد عن الباب وما دعى .

قال المُعلّى بن الفضل : كان السلف يدعون اللّه ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبله منهم .

وقال يحيى بن أبي كثير : كان من دعائهم اللهم سلمني إلى رمضان ، وتسلمه مني متقبلاً .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : «إذا جاء رمضان فُتِّحَتْ أبوابُ الجنةِ»[١] .

---

(١) البخاري (١١٢/٤) الصوم : هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومسلم (٨٧/٧) أول كتاب الصوم رقم (١٨٩٨) .

وله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **«إذا دخل شهر رمضان فُتِّحَتْ أبواب السماء ، وَغُلِّقَتْ أبواب جهنم ، وسُلْسِلَت الشياطين»**[1] وفي رواية عند مسلم **«فُتِّحَتْ أبوابُ الرحمة»**[2] .

قال عياض : يحتمل أنه على ظاهره ، وحقيقته أن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر ، وتعظيم حرمته ، ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين .

قال : ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصي الآيلة بأصحابها إلى النار ، وتصفيد الشياطين عبارة عن إعجازهم عن الإغواء وتزيين الشهوات .

وهذا الشهر عباد اللّه مدرسة ربانية رحمانية تفتح أبوابها كل سنة شهراً كاملاً يتدرب فيه العباد على طاعة اللّه عز وجل والإمساك عن معاصيه ، فهو شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن والصدقة والعمرة وسائر الطاعات .

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : قال اللّه : **«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنَّةٌ وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفَثْ ولا يصخب ، فإن سابه أحدٌ أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه»**[3] .

والصيام في اللغة هو الإمساك ، وفي الشرع إمساك مخصوص في زمن مخصوص بشرائط مخصوصة . فهو إمساك المكلف بالنية عن الطعام والشراب والشهوة من الفجر إلى المغرب .

وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد :

---

(١)البخاري (١١٢/٤) الصوم ـ رقم ١٨٩٩ .

(٢)مسلم بلفظ (إذا كان شهر رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) (١٨٧/٧) الصيام : بيان فضل الصيام .

(٣)البخاري (١٠٣/٤) الصوم : باب فضل الصوم ومسلم (٣٢/٨) في الصيام : باب فضل الصيام .

* منها كسر النفس ، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبَطَرِ والغفلة .

* ومنها تخلي القلب للفكر والذكر ، فإن تناول هذه الشهوات قد يقسي القلب ويعميه ، وخلو البطن من الطعام والشراب ، ينور القلب ويوجب رقته ويزيل قسوته ويخليه للفكر والذكر .

* ومنها أن الغني يعرف قدر نعمة اللّه عليه بامتناعه عن هذه الشهوات في وقت مخصوص ، وحصول المشقة له بذلك بتذكر من منع من ذلك على الإطلاق فيوجب له ذلك شكر نعمة اللّه عليه بالغنى ، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك .

* ومنها أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سورة الشهوة والغضب ، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وِجَاءً ؛ لقطعه عن شهوة النكاح .

ولا يتم التقرب إلى اللّه تعالى بترك الشهوات المباحة في غير حالة الصيام ، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم اللّه في كل حال ، من الكذب والظلم والاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، ولهذا قال النبي ﷺ : **«من لم يَدَعْ قول الزور والعملَ به فليس للّه حاجةٌ أن يدع طعامه وشرابه»**[1] .

قال بعض السلف : أهون الصيام ترك الشراب والطعام .

وقال جابر : إذا صُمْتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانكِ عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليَكن عليك سكينة ووقار يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء .

وكان السلف إذا صاموا جلسوا في المساجد وقالوا : نحفظ صومنا ولا نغتاب أحداً .

---

(١) رواه البخاري (٤/١١٦) في الصوم : باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم وفي الأدب باب قول اللّه تعالى : ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ورواه أبو داود (٦/٤٨٨) في الصوم : باب الغيبة والترمذي (٣/٢٢٦) باب ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم .

والصائمون على طبقتين : أحدهما من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى يرجو عنده عوض ذلك في الجنة ، فهذا قد تاجر مع الله وعامله والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخيب معه من عامله بل يربح عليه أعظم الربح ، فهذا الصائم يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء ، قال الله تعالى : ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ (الحاقة : ٢٤) .

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : «**إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون لا يدخل منه غيرهم**»[١] . وفي رواية : (فإذا دخلوا أغلق) وفي رواية (من دخل منه شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً) .

والطبقة الثانية من الصائمين من يصوم في الدنيا عما سوى الله ، فيحفظ الرأس وما حوى ، ويحفظ البطن وما وعى ، ويذكر الموت والبلى ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا ، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته .

أهل الخصوص من الصوام صومهم صون اللسان عن البهتان والكذب
والعارفون وأهل الأنس صومهم صون القلوب عن الأغيار والحجب

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولاهم قصر ، ولا يرويهم دون مشاهدته نهر هممهم أَجَلُّ من ذلك .

من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غداً في الجنة ، ومن صام عما سوى الله فعيده يوم لقائه ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ** ﴾ (العنكبوت : ٥) .

وقوله عز وجل في الحديث القدسي : «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**» معناه أن الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سَبعمائة ضعف ، إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد ، بل يضاعفه الله عز وجل أضعافاً كثيرة ، بغير حصر عدد فإن الصيام من الصبر وقد قال الله تعالى :

---

(١) البخاري (١١١/٤) في الصوم : باب الرّيان للصائمين ومسلم (٣٢/٨) في الصيام : باب فضل الصيام .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠) .

وقيل الحكمة في إضافة الصيام إلى الله عز وجل ، أن الصيام هو ترك لحظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها ، من الطعام والشراب والنكاح ، ولا يوجد ذلك في غيره من العبادات .

قال بعض السلف : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره .

وقيل : لأن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع عليه غيره ، لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله ، وترك لتناول الشهوات التي يستخفي بتناولها دائماً ، ولذلك قيل لا تكتبه الحفظة ، والله عز وجل يحب من عباده أن يعاملوه سراً .

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآن ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما أنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر : ١) .

كان الزهري إذا دخل رمضان قال : إنما هو تلاوة القرآن ، وإطعام الطعام . قال ابن عبد الحكم : كان مالك إذا دخل رمضان يَفِرُّ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم ، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف .

والشهر عباد الله مجاهدة بالليل والنهار ، فكما أن العبد يجاهد نفسه بالصيام ويلزمها بأخلاق الصائمين ، يجاهد نفسه كذلك بالقيام تشبهاً بالصالحين . قال رسول الله ﷺ : **«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه»**[1] .

وكان عمر رضي الله عنه قد أمر أُبَيَّ بن كعب وتميماً الداري أن يَؤُمَا بالناس في شهر رمضان ، فكان القارىء يقرأ بالمائتين في ركعة ، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام ، وما كانوا ينصرفون إلا قرب الفجر .

(١) رواه البخاري (٤/٢٥٠) التراويح : باب فضل من قام رمضان .

والشهر كذلك عباد اللّه تدريب على الإنفاق وكثرة الجود ، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول اللّه ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة[1] .

فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان جوده للّه وفي ابتغاء مرضاته ، وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور ، كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً ، فإن اللّه جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة ، وكان على ذلك من قبل البعثة .

ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك ، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام ، ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه ، وهو أشرف الكتب وأفضلها ، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق ، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود .

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة :

* منها : شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه ، فإن العمل يشرف ويزداد ثوابه لشرف الزمان ، أو المكان ، أو لشرف العامل وكثرة تقواه .

* ومنها : إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم ، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم ، كما أن من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه في أهله فقد غزا .

* ومنها : أن شهر رمضان شهر يجود اللّه فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لا سيما في ليلة القدر ، واللّه تعالى يرحم من عباده الرحماء . كما قال ﷺ : « **إنَّمَا يرحم اللّه من عباده الرحماء** »[2] .

---

(١) رواه البخاري (٤/١١٦) الصوم : باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ، ومسلم (١٥/٦٨ ، ٦٩) الفضائل : جوده ﷺ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن جرير . وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٧ ، (٢/٢٩٣) .

فمن جاد على عباد اللّه جاد اللّه عليه بالعطاء والفضل والجزاء من جنس العمل .

* ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال : **«من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : من تبع منكم اليوم الجنازة ؟ قال أبو بكر : أنا. قال من تصدق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا. قال فمن عاد منكم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. قال : ما اجتمعت في امرىء إلا دخل الجنة»**[1] .

* ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا ، واتقاء جهنم والمباعدة عنها ، وقد قال ﷺ : **«الصيامُ جُنَّة»**[2] وقال ﷺ : **«الصدقة تطفىء الخطيئة»**[3] .

قال أبو الدرداء : صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور ، صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور ، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير .

* ومنها : أن الصيام لا بد أن يقع فيه خلل أو نقص ، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل ، ولهذا وجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث .

* ومنها : ما قاله الشافعي رحمه اللّه : أُحِبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان ، اقتداءً برسول اللّه ﷺ ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ، ولتشاغل كثير منهم بالصوم عن مكاسبهم . اللهم تقبل منا صيامنا وقيامنا .

اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وحاضرنا وغائبنا . وصلى اللّه وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/٩٢) ، (٧/١١٠) والبخاري في الأدب المفرد (٧٥) ـ أحكام الجنائز ٦٩

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وتقدم تخريجه .

(٣) لم أقف على لفظه وقد روى الترمذي عنه ﷺ «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء» وحسنه الترمذي ولكن ضعفه الألباني فى الإرواء حديث ٨٨٥ (٣/٣٩٠) وذكره الألباني في الصحيحة رقم ١٩٠٨ (٤/٥٣٥) لفظ «صدقة السر تطفىء غضب الرب» وقال حفظه الله بعد أن ذكر طرق الحديث : وجملة القول أن الحديث بجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب بل يلحق بالمتواتر عند بعض المحدثين المتأخرين .

وظائف العشر الأواخر وليلة القدر ووداع الشهر[1]

إن الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نفْس وَاحِدَةٍ وَخلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ،،،

(فإن أصدق الحديث كتاب اللّه تعالى ، وخير الهُدى هُدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

عباد اللّه : هذا شهر رمضان قد انتصف ، فمن منكم حاسب نفسه للّه وانتصف ، من منكم عزم قبل غلق أبواب الجنة أن يبنى له فيها غرفاً من فوقها غرف .

(١) لطائف المعارف لابن رجب ـ فتح الباري لابن حجر .

ألا إن شهركم قد أخذ في النقصان فزيدوا أنتم في العمل ، فكأنكم به وقد انصرف ، فكل شهر فعسى أن يكون منه خلف ، وأما شهر رمضان فمن أين لكم منه خلف .

تَنَصَّفَ الشَّهْرُ وَالهَفَاهُ وَانْهَدَمَا ... وَاخْتُصَّ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّاتِ مَنْ خَدَمَا
وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمِسْكِينُ مُنْكَسِراً ... مِثْلِي فَيَا وَيْحَهُ يَا عِظَمَ مَا حُرِمَا
مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبِذَارِ فَمَا ... تَرَاهُ يَحْصُدُ إِلَّا الْهَمَّ وَالنَّدَمَا
طُوبَى لِمَنْ كَانَت التَّقْوَى بِضَاعَتَهُ ... فِي شَهْرِهِ وَبِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمَا

في الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شَدَّ مئزره وأحيا ليله ، وأيقظ أهله »[1] .

ولمسلم عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره »[2] .

وقد تضمن حديث عائشة رضي الله عنها ثلاثة أشياء ، كان يخص بها رسول الله ﷺ من العشر الأواخر .

أولها : شد المئزر واختلفوا في تفسيره فمنهم من قال هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة، وقيل المراد اعتزاله للنساء ، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون .

وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكف العشر الأواخر والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع .

قال الله عز وجلّ : ﴿ **وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُم عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** ﴾ (البقرة : ١٨٦) . وقد قالت طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

إنه طلب ليلة القدر والمعنى في ذلك أن الله تعالى لما أباح المباشرة في ليالي الصيام ، أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر ، لئلا يشتغل المسلمون في طول

---

(١) البخاري (٤/٢٦٩) الصوم . باب العمل في العشر الأواخر من رمضان .
(٢) الترمذي (٤/١١) ومسلم (٨/٧٠) الاعتكاف : باب الاجتهاد في العشر الأواخر .

ليالي الشهر بالاستمتاع المباح ، فيفوتهم طلب ليلة القدر .

وقول عائشة رضي الله عنها « أَحْيَا لَيْلَهُ » يحتمل إحياء الليل كله ، ويحتمل أن المراد إحياء غالب الليل، ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت : « ما أعلمه ﷺ قام ليله حتى الصباح »[1] .

وقولها رضي الله عنها : « وأيقظ أهله » يدل على أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيرها من الليالي .

وخرج الطبراني من حديث عليّ أن النبي ﷺ «كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان وكل صغير وكبير يطيق الصلاة »[2] .

قال سفيان الثوري : أحبّ إليَّ إذا دخل العشر الأواخر ، أن يتهجد بالليل ، ويتهجد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما : « ألا تقومان فتصليان »[3] .

ومما كان يخص به رسول الله ﷺ العشر الأواخر من رمضان تأخير الفطور إلى السحور وهو المواصلة إلى السحر ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر . قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ، قال : « إني لست كهيئتكم ، إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني »[4] .

وزعم ابن جرير رحمه الله أن النبي ﷺ لم يكن يواصل إلاّ إلى السحر خاصة وأن ذلك يجوز لمن قوي عليه ويكره لغيره .

ومما كان يخص به رسول الله ﷺ العشر الأواخر .

---

(١) في مسلم عن عائشة بلفظ «وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح وما صام شهراً متتابعاً إلا رمضان» (٦/٢٩) صلاة الليل والوتر.

(٢) قال الهيثمي رواه الترمذي باختصار ورواه الطبراني في الأوسط وابو يعلى باختصار عنه وفي إسناد الطبراني عبد الغفار بن القاسم وهو ضعيف وإسناد أبي يعلى حسن ـ مجمع الزوائد (٣/١٧٤) .

(٣) البخاري (٣/١٠) التهجد باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب

(٤) البخاري (٤/٢٠٨) الصوم باب الوصال إلى السحر .

الاعتكاف : ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى [1] .

وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في العشر التي يطلب فيها ليلة القدر ، قطعاً لأشغاله ، وتفريغاً لباله ، وتخلياً لمناجاة ربه ، وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيراً يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم ، ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات ينهى عنها .

فمعنى الاعتكاف وحقيقته ، قطع العلائق عن الخلائق ، للاتصال بخدمة الخالق ، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال .

روى البخاري عن عائشة رضي عنها زوج النبي ﷺ قالت : « **وإن كان رسول الله ﷺ ليدخل رأسه وهو في المسجد فأرجله ، وكان لا يدخل إلا لحاجة إذا كان معتكفاً** » [2] .

وفسره الزهري بالبول والغائط ، وقد اتفق العلماء على استثنائهما واختلفوا في غيرهما من الحاجات كالأكل والشرب ، والجمهور على أنه لا يكره في المسجد ، وعن مالك تكره فيه الصنائع والحرف حتى طلب العلم .

ومن شرف هذه العشر عباد الله ، أن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر في وتر منها ، قيل في ليلة إحدى وعشرين ، وقيل في خمس وعشرين ، وقيل في سبع وعشرين وهو أصحها وأشهرها دليلاً ، وقيل لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بين أوتار العشر وليست في ليلة منها ولا تخرج عنها .

وحكى ابن كثير هذا الوجه عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وقال

---

(١) البخاري (٢٣٥/٤ ، ٢٣٦) الاعتكاف : باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ، ومسلم (٦٨/٨) الاعتكاف .

(٢) البخاري (٢٧٣/٤) الاعتكاف : باب لا يدخل البيت إلا لحاجة .

وهو الأشبه . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تنزلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر) .

واختلف العلماء في سبب تسميتها ليلة القدر ، فقيل المراد به التعظيم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر : ٦٧) .

والمراد أنها ذات قدر لنزول القرآن فيها ، أو لما يقع فيها من تنزل الملائكة ، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة ، أو أن الذي يحييها يصير ذا قدر .

وقيل سميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾(الدخان : ٣٠) . وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ والتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة : ٢). وقوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أي فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

قال مالك : « بلغني أن رسول الله ﷺ رأى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر » .

قال النخعي : العمل فيها خير من العمل في ألف شهر .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] .

وقوله عز وجل : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع البركة

(١) البخاري (٤/٢٥٥) فضل ليلة القدر ، ومسلم (٦/٤٠ ، ٤١) صلاة المسافرين : الترغيب في صلاة التراويح .

والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له ، وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام ، فيكون من عطف الخاص على العام ، وقيل هم ضرب من الملائكة .

وقوله عز وجل : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن مجاهد قال : هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ، أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة : « سَلَامٌ هِيَ » يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر .

عباد الله هذا شهر رمضان قد عزم على الرحيل ، ولم يبقَ منه إلاَّ القليل ، فمن منكم أحسن فيه فعليه التمام ، ومن فرط فليختمه بالحسنى والعمل بالختام ، فاستغنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام ، واستودعوه عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام ، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام .

سَلَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ كُلَّ أَوَانِ   عَلَى خَيْرِ شَهْرٍ قَدْ مَضَى وَزَمَانِ
سَلَامٌ عَلَى شَهْرِ الصِّيَامِ فَإِنَّهُ   أَمَانٌ مِنَ الرَّحْمَنِ كُلُّ أَمَانِ
لَئِنْ فَنِيَتْ أيامُكَ الْغُرُّ بَغْتَةً   فَمَا الْحُزْنُ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ بِفَانِ

فيا أصحاب الذنوب العظيمة ، الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة ، فما منها عوض ولا لها قيمة ، فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة ، والمنحة الجسيمة ، يا من أعتقه مولاه من النار إياك أن تعود بعد أن صرت حراً إلى رق الأوزار ، أيبعدك مولاك من النار وتقترب منها ، وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها .

ماذا فات من فاته خير رمضان ، وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان ، كم بين من حظه فيه القبول والغفران ، ومن كان حظه فيه الخيبة والخسران .

روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان : يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه ومن هذا المحروم فنعزيه .

قلوب المتقين إلى هذا الشهر تحن ، ومن ألم فراقه تئن .

كيف لا تجري للمؤمن على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع .

لقد ذهبت أيامه وما أطعتم ، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم ، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا ، وانقطعتم .

أين حرق المجتهدين في نهاره ، أين قلق المتهجدين في أسحاره ، ماذا ينفع المفرط فيه بكاؤه ، وقد عظمت فيه مصيبته وجل عزاؤه .

كم نصح المسكين فما قبل النصح		كم دعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح
كم شاهد الواصلين فيه وهو متباعد		كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد

حتى إذا ضاق به الوقت ، وخاف المقت ، ندم على التفريط حين لا ينفع الندم ، وطلب الاستدراك في وقت العدم .

أتترك من تحب وأنت جار		وتطلبهم وقد بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقا		وتسأل في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور		وترجو أن تخبرك الديار
نفسك لُمْ ولا تلم المطايا		ومت كمداً فليس لك اعتذارا

يا شهر رمضان ترفق		دموع المحبين تدفق		قلوبهم من ألم الفراق تشقق

عسى وقفة للوداع ، تطفىء من نار الشوق ما أحرق .

عسى ساعة توبة وإقلاع ، ترفو من الصيام ما تخرق .

عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق .

عسى أسير الأوزار يطلق .

عسى من استوجب النار يعتق .

عسى وعسى من قبل وقت التفرق		إلى كل ما ترجو من الخير تلتقي
فيجبر مكسور ويقبل تائب		ويعتق خطاء ويسعد من شقي

نسأل الله الكريم أن يعيد علينا هذا الشهر سنين متوالية ونحن في عافية ، في ديننا ودنيانا وأن يأجرنا على مصابنا بفراقه خير الجزاء ، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول .

خُطبة عيد الفطر[1]

الحمد لله الذي قسم بين الخلائق أسباب العسر واليسر ، وخصّنا من بين سائر الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فللّه الحمد إذ رزقنا إتمامه وأنالنا عيد الفطر .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، شهادة أفوز بها يوم القيام من القبر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البشر ، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما دارت الأفلاك وتعاقب الدهر ، وسلّم تسليماً .

قال الله تعالى ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٥).

فالله أكْبر الله أكبر الله أكبر
الله أكبر الله أكبر الله أكبر
الله أكبر الله أكبر الله أكبر

ويا شهرَ رمضان غير مودع ودعناك ، وغير مَقْلِيٍّ فارقناك ، كان نهارك صدقة وصياماً، وليلك قراءة وقياماً ، فعليك منا تحية وسلاماً .

أتراك تعود بعدها علينا ، أو تدركنا المنون فلا تؤول إلينا ، مصابيحنا فيك مشهورة ، ومساجدنا فيك معمورة ، فالآن تنطفىء المصابيح ، وتنقطع التراويح ، ونرجع إلى العادة ، ونفارق شهر العبادة .

عباد الله من كان منع نفسه في شهر رمضان من الحرام ، فليمنعها فيما

(١) اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان لإبراهيم بن عبيد ـ معارج القبول لحافظ بن أحمد ـ لطائف المعارف لابن رجب .

بعده من الشهور والأعوام ، فإن إله الشهرين واحد ، وهو على الزمانين مطلع وشاهد .

عباد الله اعلموا أن يوم العيد يوم سعيد ، يسعد فيه أناس ويشقى فيه عبيد ، فطوبى لعبد قبلت فيه أعماله ، والويل لمن عمله عليه مردود ، وباب التوبة عنه مسدود ، وهو يوم يهنأ فيه المقبول ، ويعزى فيه المطرود .

فيا أيها المقبول هنيئاً لك بثواب الله عزّ وجلّ وغفرانه ، وتعساً لك يا مطرود بإصرارك على عصيانه ، لقد عظمت مصيبتك فأين دمعتك وتوبتك ، فلأي يوم أخرت توبتك ، ولأي عام ادخرت عدتك ، أإلى عام قابل ، وحول حائل .

كلا فما إليك مدة الأعمار ، ولا معرفة المقدار ، فكم من أعد طيباً لعيده . جعل في تَلْحِيدهِ ، وثياباً لتزيينه صارت لتكفينه ، ومتأهباً لفطره صار مرتهناً في قبره ، فاحمدوا الله على بلوغ ختامه وسلوه قبول صيامه وقيامه .

عباد الله كم فرح بالعيد مسرور وهو مبعد مهجور ، فيا من يفرح بالعيد لتحسين لباسه ويوقن بالموت وما استعد لباسه ، ويغتر بأقرانه وجلاسه وكأنه قد أمن سرعة اختلاسه .

كيف تسر عين مطرود من الفلاح ؟
كيف يسر من يصر على الأفعال القباح ؟
كيف لا يبكي من فاته جزيل الأرباح ؟
النوح أحق بك من السرور يا مغرور.
والحزن أجدر بك من جميع الأمور.
والجد أولى بك من التواني والفتور
كيف يسر من تاب ثم عاد ؟
كيف يفرح من آثامه في ازدياد ؟

فطوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن الخطايا قبل فوت الأوبة ، وبادر الممكن قبل أن لا يمكن .

لله در أقوام تركوا الدنيا فأصابوا ، وسمعوا منادي الحق يدعو فأجابوا ، وقصدوا باب مولاهم فما ردوا وما خابوا .

عباد اللّه : بادروا بالتوبة إلى اللّه عز وجل من جميع الذنوب ، واعلموا أن اللّه عز وجل خلقنا لعبادته قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون** ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

والعبادة هي كمال الحبِّ للّه عز وجل مع تمام الذل له ، وهي كل ما يحبه اللّه عز وجل ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والباطنة كالرجاء والخوف والرغبة والرهبة والإنابة والإخبات والتوكل والمحبة وغير ذلك .

واعلموا عباد اللّه أن أعظم الذنوب هو الشرك باللّه عز وجل فهو القبيحة التي لا يغفرها اللّه عز وجل .

قال عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُون ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء** ﴾ (النساء : ١٦٦) .

وقال عز وجل : ﴿ **إِنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم** ﴾ (لقمان : ١٣) .

وقيل للنبي ﷺ (أي الذنب أعظم ؟ قال : «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[١] .

وأكثر الناس عباد اللّه يقولون بألسنتهم «أشهد أن لا إله إلا اللّه» فيشهدون بأنه لا يستحق أحد العبادة مع اللّه عز وجل ، ومع ذلك يوجهون العبادات لغير اللّه عز وجل فينذرون لغير اللّه ، ويذبحون لغير اللّه ، ويستغيثون بغير اللّه عز وجل ، ويحلفون بغير اللّه عز وجلّ ، وصدق عليهم قول اللّه عز وجل ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونْ** ﴾ (يوسف : ١٠٦) .

وأكثر الناس عباد اللّه يقولون بألسنتهم أشهد أن محمداً رسول اللّه ﷺ فَيشْهَدُون بأن اللّه عز وجل لا يعبد إلا بما شرع وبين رسوله ﷺ ومع ذلك لا

(١) رواه البخاري (١٦٣/٨) التفسير : باب قوله تعالى ﴿ **فَلاَ تَجْعَلوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمون** ﴾ ورواه في الأدب والديات والتوحيد ورواه مسلم (٨٠/٢) الإيمان : باب الشرك أعظم الذنوب ورواه النسائي في تحريم الدم وأبو داود في الطلاق والترمذي .

يسلمون أنفسهم لرسول اللّه ﷺ ، فيقدمون على سنته ﷺ آراء البشر وأهواء البشر ، والمناهج والمذاهب إذا تعارضت مع سنّة النبي ﷺ ، وقد قال اللّه عز وجل : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفسِهِمْ حَرَجاً مِمَا قَضَيْتَ وَيُسَلِمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء : ٦٥) .

وقد دعا اللّه عز وجل جميع العباد إلى التوبة .

دعا إليها المنافقين فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الْدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نصِيراً إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَأَخلَصُوا دِينَهُمْ لِلّهِ ﴾ (النساء : ١٤٦) .

ودعا إليها الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ ونحنُ أغْنِيَاء ﴾ (آل عمران : ١٨١) .

وقالوا : ﴿ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (المائدة : ٦٣) .

فقال عز وجل بعد أن ذكر حالهم : ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللّهِ ويستَغفرُونَهُ ﴾ (المائدة : ٧٤) .

ودعا إليها المشركين كافةً فقال عز وجل : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتوا الْزَكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الْدِّين ﴾ (التوبة ؛ ١١) .

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم من أمة النبي ﷺ ومن غيرهم فقال عزّ وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُور الْرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣) .

كما دعا إليها أهل الإيمان وخيار الخليقة فقال عز وجل للصحابة بعد إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وصبرهم ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ (النور : ٣١) .

قال مجاهد : منْ لمْ يتب كلّ صَباح ومسَاء كان من الظالمين قال اللّه عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأولَئِكَ هُمُ الْظَالِمُونَ ﴾ (الحجرات : ١١) وقال اللّه عز وجل : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِئاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْموتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّار ﴾ (النساء : ١٨) .

فسوى اللّه عز وجل بين من تاب عند الموت ، ومن مات بغير توبة ، والمراد بالتوبة عند الموت ، التوبة عند انكشاف الغطاء ومعاينة المحتضر أمور الآخرة ومشاهدة الملائكة ، فإن الإيمان والتوبة وسائر الأعمال إنما تنفع بالغيب ، فإذا كشف الغطاء وصار الغيب شهادة لم ينفع الإيمان ولا التوبة .

قال اللّه عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُون ﴾ (سبأ : ٥٤) فسره طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها .

قال الحسن : اتق اللّه يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان ، سكرة الموت وحسرة الفوت .

والناس في التوبة على أقسام :

* فمنهم من لا يوفق لتوبة نصوح ، بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره إلى آخره ، حتى يموت مصراً عليها ، وهذه حالة الأشقياء نعوذ باللّه من حالهم .

* ومنهم من ييسر له في عمره عمل الطاعات ، ثم يختم له بعمل سيء حتى يموت عليه كما جاء في الحديث «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[1] .

ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى .

وأصعب منه الضلالة بعد الهدى ، والمعصية بعد التقى .

كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، كم من شارف مركبة ساحل النجاة فلما هَمَّ أن يرتقي لعب به موج فغرق .

الخلق كلهم تحت هذا الخطر ، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

---

(١) رواه البخاري (٦/٣٠٣) بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ، وفي كتاب التوحيد وأول كتاب القدر ومسلم (١٦/١٩٠) القدر : باب كيفية خلق الآدمي في بطن

قال بعضهم : ما العحب ممن هلك كيف هلك ، إنما العجب ممن نجا كيف نجا .

* وقسم يفني عمره في الغفلة والبطالة ، ثم يوفق لعمل صالح فيموت عليه ، وهذه حالة من عمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها الأعمال بالخواتيم ، وهؤلاء منهم من يستيقظ قبل الموت بمدة ، يتمكن فيها من التزود بعمل صالح يختم به عمره ، ومنهم من يستيقظ قبل الموت بمدة يسيرة .

* بقي قسم هو أشرف الأقسام وأرفعها ، وهو من يفني عمره في الطاعة ثم ينبه على قرب أجله ليجد في التزود ويتهيأ للرحيل ، بعمل يصلح للقاء ، ويكون خاتمة للعمل .

قال ابن عباس لما نزلت على النبي ﷺ ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ (الفتح : ١) . نعت لرسول الله ﷺ نفسه ، فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة .

قالت أم سلمة : (كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان الله وبحمده»[١] .

وكان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشراً ويعرض القرآن على جبريل مرة ، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوماً ، وعرض القرآن مرتين ، وكان يقول ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي ، ثم حج ﷺ حجة الوداع ، ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها ، وقال أيها الناس يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، ثم أمر بالتمسك بكتاب الله ، ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ ، إذا كان سيد المحسنين ﷺ يؤمر أن يختم عمره بالزيادة في الإحسان ، فكيف يكون حال المسيء .

كان السلف يرون أن من مات عقب عمل صالح كصيام رمضان أو عقيب

---

(١) روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر وأتوب إليه فقد رأيتها» ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً ﴾ .

حج أو عمرة يرجى له أن يدخل الجنة ، وكانوا مع اجتهادهم في الصحة في الأعمال الصالحة يجددون التوبة والاستغفار عند الموت ، ويختمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد .

أيها العاصي ما يقطع من صلاحك الطمع ، ما نصبنا اليوم شَرَكَ المواعظ إلا لتقع ، إذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة قالت ملائكة الرحمة مرحباً وسهلاً .

فإن قال لك رفقاؤك في المعصية هَلُمَّ إلينا ، فقل كلا ! ! ! ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلاًّ .

يا من سود كتابه بالسيئات ، قد آن لك بالتوبة أن تمحو
يا سكران القلب بالشهوات ، أما آن لفؤادك أن يصحو .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ـ وخير أيامنا يوم لقائك ـ اللهم إنّا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ومرافقة رسولك في الجنة ـ اللهم زينّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين .

وصلى اللّه وبارك على محمد وآله وسلم تسليماً .

الزواجر عن اقتراف الكبائر[1]

الحمد للّه الذي حمى من أجل رأفته بعباده ، وغيرته المنزهة عما لا يليق بجلال قدرته وكمال عـزّته، حمى حـومة الكبـائر والفـواحش والمعاصي بقـواطع النصوص الزواجر ، وآيات كتبه البحور الزواخر ، ونواميس عدله القواصم القواهر ، عن أن يلموا بذلك الحمى الوعرة سُبله ، وآثاره المضرمة جحيمه ، وناره المحرقة وُراده وزواره ، إذا لم يخشوا من غضب رب الأرباب ، الموجب لمعالجتهم بعظيم العقاب ، والخلود في خزي الهوان والعذاب ، ولم يطمعوا في المسارعة إلى سوابغ رحمته ورضاه ، وإفضاله على كل من أطاعه بما يحبه ويتمناه ، وتوفيقه إلى دار كرامته ومحياه ، ولا آثروا تقديم مراده ، ولا أعرضوا عما لا يرضيه في عباده ، ولا أحرزوا قصب السبق في داري معاشه ومعاده .

وأشهد أن لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له ، شهادة أفوز بها بالحفظ من معاصيه القاطعة عن عَلِيِّ جنابه ، وأتبوأ بالإخلاص فيها غرف قربه مع الكُمَّلِ من أحبابه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله ، الذي أمرنا اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه ، ﷺ وآله وأصحابه ، الذين صانهم اللّه عن أن يدنسوا صفاء صدقهم بدنس المخالفات ، وأن يؤثروا على رضا اللّه ورسـوله شيئاً من قواطع الشهوات ، وأن يتطلعوا إلا إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي في سائر الحالات صلاةً وسلاماً دائمين بدوامه الأقدس ، عطرين بعبوق شذاه الأطيب الأنفس ، وكذا على تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين الذي كما يدين كل أحد به

---

(1) الزواجر لابن حجر الهيثمي باختصار وتصرف (من ٥ إلى ٣٣) طبعة دار الشعب .

يدان ؛ ويقال للعاصي هل جزاء العصيان إلا الخزي والهوان ، وللمحسن هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

ثم أما بعد . . .

اعلموا عباد اللّه أن جماعة من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صغائر ، وقالوا بل سائر المعاصي كبائر ، وقال القاضي عبد الوهاب : لا يمكن أن يقال في معصية اللّه أنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر .

وقال الجمهور : إن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر لقوله عز وجل : ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً** ﴾ (النساء : ٣١) .

وقوله عز وجل : ﴿ **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾ فجعلها رتباً ثلاثة (الحجرات : ٧) .

وقوله عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمْ** ﴾ (النجم : ٣٢) .

وقوله ﷺ : **«الصلواتُ الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»**[١] .

واختلف العلماء في حد الكبيرة على أقوال :

* منها أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بنص كتاب أو سنّة .

* ومنها أنها ما أوجب الحد ، أو توجه إليه الوعيد ، والصغيرة ما قل فيه الإثم .

* ومنها أنها كل جريمة (أو جريرة) تؤذن (أي تعلم) بقلة اكتراث (أي اعتناء) مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة مبطلة للعدالة ، وكل جريمة أو جريرة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن ظاهراً بصاحبها لا تحبط العدالة .

---

(١) رواه مسلم (٣/١١٧ ، ١١٨) الطهارة باب فضل الوضوء والصلاة عقبه والترمذي (٢/١٤ ، ١٥) الصلاة : باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس وقال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح .

* ومنها أنها كل ما ينص الكتاب على تحريمه ، أو وجب في جنسه حد وترك فريضة تجب فوراً ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين .

* ومنها أنه لا حد لها بحصرها يعرفه العباد ، وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولكن اللّٰه عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهى عنه رجاءَ أن تجتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك .

وذهب بعض العلماء إلى تعريفها بالعد ، من غير ضبطها بحد ، فقيل هي سبع واستدلوا على ذلك بخبر الصحيحين (اجتنبوا السبع الموبقات الشرك باللّٰه ، والسحر ، وقتل النفس ، التي حرم اللّٰه إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1] .

وعن ابن عباس قال هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع .

وعن سعيد بن جبير أكبر تلامذته هي إلى السبعمائة أقرب يعني باعتبار أصناف أنواعها .

والأحاديث المصرحة بالكبائر نوعان :

منها ما صرح فيه بأنه كبيرة ، أو أكبر الكبائر ، أو أعظم الذنوب ، أو موبق ، أو مهلك ، وما ذكر فيه نحو لعن ، أو غضب ، أو وعيد شديد ، فمن الأول خبر الشيخين «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، الإشراك باللّٰه ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وقول الزور ، وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[2] .

ولهما أيضاً أن رجلاً قال للنبي ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل للّٰه نِدّاً وهو خلقك قال : إن ذلك عظيم ، ثم أي ؟ قال : وأن تقتل ولدك مخافة أن

---

(١) رواه البخاري (٥/٣٩٣) الوصايا : باب قول اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِين يأكلُونَ أَمْوَال الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُون فِي بُطُونِهِم نَاراً وَسَيَصْلَونَ سَعِيراً ﴾ وفي الطب وفي المحاربين ، ومسلم (٢/٨٣) الإيمان : باب بيان الكبائر وأكبرهما ، ورواه أبو داود والنسائي .

(٢) رواه البخاري (٥/٢٦١) الشهادات : باب ما قيل في شهادة الزور وكذلك في الأدب والاستئذان ، ومسلم (٢/٨١ ، ٨٢) الإيمان : أكبر الكبائر ، والترمذي في الشهادات باب ما جاء في شهادة الزور .

يطعم معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك[1] .

ورويا أيضاً (من الكبائر شتم الرجل والديه . قيل وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه وأمه)[2] .

النوع الثاني :

ما رواه مسلم وغيره عن النبي ﷺ «**قال ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، قال أبو ذر : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقلت خابوا وخسروا من هم يا رسول الله قال المسبل إزاره خيلاء**» وفي روايات أخر «**والمنان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّهُ والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[3] .

ومنه أيضاً قوله ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**» أي نمام[4] .

واعلموا عباد الله وفقنا الله وإياكم لطاعته وأنالنا سوابغ رضاه ومهابته، أن الله تعالى حذر عباده من معصيته، بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته، وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدانيته، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ (الزخرف : ٥٥) . أي أغضبونا وقال عز وجل : ﴿**فَلَمَّا عَتَوا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين**﴾ (الأعراف : ١٦٦) وقال عز وجل : ﴿**وَلَو يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّة**﴾ (فاطر : ٤٥) .

وقال عز وجل : ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِه وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيرَاً**﴾ (النساء : ١٢٣) .

---

(١) رواه البخاري (١٦٣/٨) التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾ ورواه في الأدب والديات والتوحيد ، ورواه مسلم (٨٠/٢) الإيمان : باب الشرك أعظم الذنوب ، ورواه الترمذي ، ورواه النسائي في تحريم الدم ، وأبو داود في الطلاق .

(٢) رواه البخاري (٤٠٣/١٠) في الأدب ومسلم (٨٣/٢) الإيمان ؛ أكبر الكبائر ورواه الترمذي في البر ، وأبو داود في الأدب .

(٣) رواه مسلم (١١٤ ، ١١٥) الإيمان : باب ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا يزكيهم ، ورواه البخاري بمعناه (٣٤/٥) باب إثم من منع ابن السبيل من الماء ورواه أبو داود والنسائي .

(٤) رواه البخاري (٤٧٢/١٠) الأدب : باب النميمة من الكبائر ، ومسلم (١١٢/٢) الإيمان : غلظ تحريم النميمة ورواه أبو داود والترمذي .

وفي الصحيح «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا»(١) .

وفي الصحيحين كذلك أن رسول اللّه ﷺ قال : «إنّ اللّه يغار وإن المؤمن يغار وغيرة اللّه أن يأتي المؤمن ما حرم اللّه عليه»(٢)

وفيهما أنه ﷺ قال : «لا أحد أغير من اللّه ، فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبّ إليه المدح من اللّه عز وجل»(٣) .

قال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت .

وقال الحسن بن آدم : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة .

وقال محمد بن كعب القرظي : ما عبد اللّه بشيء أحبَّ إليه من ترك المعاصي .

ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(٤) .

فأتى بالاستطاعة في جانب المأمورات ولم يأتِ بها في جانب المنهيات ، إشارة إلى عظم خطرها وقبيح وقعها ، وأنه يجب بذل الجهد والوسع في المباعدة عنها ، سواء استطاع ذلك أم لا بخلاف المأمورات .

قال حذيفة : إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا أذنب نكت

---

(١) رواه الدارقطني وهو من رواية مكحول عن أبي ثعلبة وفيه انقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة وله شاهد عند الدارقطني وآخر عند البزار والحاكم وصححه قال عبد القادر الأرناؤوط وله شواهد أخر بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن وقد حسنه النووي في أربعينه وكذلك حسنة قبله الحافظ أبو بكر السمعاني في أماليه ـ جامع الأصول هامش (٥/٥٩) .

(٢) رواه البخاري (٩/٢٨١) النكاح : باب الغيرة ، ومسلم (١٧/٧٧) التوبة : باب غيرة اللّه تعالى وتحريم الفواحش ورواه الترمذي في الرضاع : باب ما جاء في الغيرة .

(٣) رواه البخاري (٩/٢٨٠) في النكاح : باب الغيرة ، ورواه في التفسير والتوحيد ، ورواه مسلم (١٧/٧٧) التوبة : باب غيرة اللّه تعالى وتحريم الفواحش ورواه الترمذي في الدعوات .

(٤) رواه البخاري (١٣/٢٥١) الاعتصام بالكتاب والسنة : باب الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ ، ومسلم (٩/١٠١) الحج : باب فرض الحج مرة في العمر ورواه الترمذي في العلم والنسائي في الحج .

في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير قلبه كله أسود. ويؤيده قول السلف: المعاصي بريد الكفر (أي رسوله) باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يبقَ يقبل خيراً قط، فحينئذٍ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف، فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب ويتخذ الشيطان ولياً، من دون الله، ويضله ويغويه وبعده ويمنيه ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد له إليه سبيلاً.

قال اللّٰه تعالى: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خلقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَخِذِ الشَّيطانَ وَلِياً مِنْ دُونِ اللَّه فَقَدْ خَسِرَ خسْرَاناً مُبِيناً يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ومَا يعدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاّ غُرُوراً أُولَئِكَ مَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾ (الأعراف: ١٣٥).

واعلموا عباد اللّٰه أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف اللّٰه تعالى وخشية انتقامه وسطوته.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: الخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة، وبقدر ما يكف عن المعصية، ويحث على الطاعة، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى اللّٰه سبحانه وتعالى، كما علم من الآيات والأخبار، كقوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِم يَرْهَبُون ﴾ وقال تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه ذَلِكَ لِمَنْ خشِيَ رَبَّه ﴾ (البينة: ٨) وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان ﴾ (الرحمن: ٤٥) وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ (فاطر: ٦). وكل ما دل على فضيلة العلم يدل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم.

واعلموا أن البكاء إما من حزن، وإما من وجع، وإما من فزع، وإما من فرح، وإما شكراً، وإما من خشية اللّٰه تعالى، وهذا هو أعلاها درجة وأغلاها ثمناً في الدار الآخرة، وأما البكاء للرياء والكذب فلا يزداد صاحبه به إلا طرداً وبعداً ومقتاً.

وحق لمن لم يعلم ما جرى له به القلم في سابق علم اللّٰه تعالى، من

سعادة مؤبدة ، أو شقاوة مخلدة ، وهو فيما بين هاتين الحالتين قد ركب المحرمات ، وخالف خالقة في المنهيات ، أن يكثر بكاؤه وأسفه وحزنه ونحيبه ولهفه ، وأن يهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن يجأر إلى اللّه تعالى على ما سلف منه ، من سوابق مخالفاته ، وقبائح شهواته ، عسى أن يوفقه إلى التوبة النصوح ، وأن يخرجه من ظلمات الجهل والعصيان إلى العلم والطاعة ، وما لهما من ثمرات المعرفة والفتوح .

قال بعضهم : أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً .

وقال ﷺ : «**أنا أعلمكم باللّه وأشدكم له خشية**»[1] .

ومن ثمّ غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ، وغلب أمن المكر على الظلمة الأطغياء، والفراعنة الأغبياء، والجهلة والعوام والرعاع والطغام، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم، فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار العذاب ، ولا بعد الحجاب ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (الحشر : ١٩) .

وفي صحيح البخاري عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - (أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت فطار لنا (أي وقع في سهمنا) عثمان بن مظعون ، من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبديهم ، وممن شهد بدراً ، فاشتكى فمرضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه ، دخل علينا رسول اللّه ، فقلت: رحمةَ اللّه عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك اللّه تعالى - فقال لي رسول اللّه ﷺ وما يدريك أن اللّه أكرمه فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه قال أما عثمان فقد جاءه اليقين ، وإني لأرجو له الخير ، ثم قال رسول اللّه ﷺ ما أدري وأنا رسول للّه ما يفعل بي . قالت فواللّه لا أزكي أحداً بعده أبداً)[2] .

فتأملوا عباد اللّه زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على اللّه في عثمان ، مع

---

(١) رواه البخاري ومسلم وقد تقدم تخريجه .

(٢) رواه البخاري (٤٩٢/٨) تفسير سورة الفرقان وفي الأدب ومسلم (٨٠/٨) الإيمان : باب كون الشرك أقبح الذنوب ورواه أبو داود والترمذي .

كونه شهد بدراً وقد قال ﷺ : «**وما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1] .

وقد قبله ﷺ ووصفه بأعظم الأوصاف وأفضلها وكان أول من قبر البقيع .

فهذا يدلنا عباد اللّه على أنه ينبغي لنا وإن عملنا من الطاعات ما عملنا ، أن نكون على حيز الخوف والخشية من اللّه تعالى ، وعذابه وأليم عقابه ، فإنه لا يجب عليه لأحدٍ من خلقه شيء ﴿ **قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ (المائدة : ١٦) .

ومن العجيب أن قوله تعالى : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى** ﴾ [طه : ٨٢] .

ربما فهم منه بعض من لا تأمل له ، أن فيه رجاءً عظيماً ، وأي رجاء عظيم فيه ، مع كونه تعالى شرط للمبالغة في المغفرة أربعة شروط التوبة ، والإيمان الكامل ، والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين ، من مراقبة اللّه تعالى وشهوده وإدامة الذكر والفكر والإقبال على اللّه تعالى بقلبه وحاله ودعائه وإخلاصه .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ** ﴾ (القصص : ٦٧) .

ولا تغتر بما قيل عسى من اللّه واجبة الوقوع ، فإن ذلك أكثري لا كلي ، قال تعالى : ﴿ **فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (طه : ٤٣) . وفرعون لعنه اللّه لم يتذكر ولم يخشَ تذكر ، بل نبهك اللّه تعالى على أنك إذا تبت توبة نصوحاً ، وآمنت إيماناً كاملاً وعملت صالحاً ، كنت على رجاء حصول الفلاح لك والهداية والقرب من حضرة الحق ، فإياك وأن تأمن مكر اللّه واستحضر قوله تعالى : ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِم** ﴾ (الأحزاب : ٨) . وقوله : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا**

---

(١) رواه البخاري عن علي رضي اللّه عنه (١٤٣/٦) الجهاد : باب الجاسوس في قصة حاطب بن أبي بلتعة حديث رقم ١٤٢٩ .

﴿... نُؤَخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود : ١٠٢) .

سئل سعيد بن جبير عن الخشية فقال أن تخشى اللّه تعالى حتى تحول خشيته بينك وبين معاصيه ، فهذه هي خشيته ، وأما الغرة باللّه فهي أن يتمادى الرجل في المعصية ، ويتمنى على اللّه المغفرة .

وعن يحيى بن معاذ قال : من أعظم الاغترار أن المذنب يرجو العفو من غير ندامة ، ويتوقع القرب من اللّه تعالى بغير طاعة ، وينتظر الجزاء بلا عمل ، ويتمنى على اللّه مع الإفراط .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبداً ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

تحريم موالاة المشركين

إنَّ الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً .

ثم أما بعد ،،،

اعلموا عباد اللّه أن اللّه عز وجل قد هدى الناس ببركة نبوة محمد ﷺ ، وما جاء به من البينات والهدى ، هداية جلت عن وصف الواصفين ، وفاقت معرفة العارفين ، حتى حصل لأمته المؤمنين به عموماً ، ولأولي العلم منهم خصوصاً ، من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسُّنن المستقيمة شيئاً عظيماً ، فللّه الحمد كما يحب ربنا ويرضى .

قال عدي بن حاتم رضي اللّه عنه : أتيت رسول اللّه ﷺ وهو جالس في المسجد ـ فقال القوم : هذا عدي بن حاتم ، وجئت بغير أمان ولا كتاب ، فلما دفُعت إليه أخذ بيدي ، وقد قال قبل ذلك : إني لأرجو أن يجعل اللّه يده في يدي ، قال : فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها ، فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره ، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : ما يُفِرُّك أيفركَ أن تقول لا إلّه إلا اللّه ؟ فهل تعلم من إلّه سوى اللّه ؟ قال : قلت : لا ، ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما يفرك أن تقول اللّه أكبر أو تعلم شيئاً أكبر من اللّه؟ قال: قلت: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال.

قال: فقلت: فإني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهه ينبسط فرحاً[1].

وقد دل الكتاب على معنى هذا الحديث، من وسم النصارى بالضلال، واليهود بالغضب.

قال اللّه عز وجل في النصارى: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** ﴾، إلى قوله عز وجل - ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ (المائدة: ٧٢)

وقال عز وجل عن اليهود: ﴿ **فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ** ﴾ (البقرة: ٩٠).

ووسم النصارى بالضلال، لأن كفرهم من وجهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من اللّه، ويقولون على اللّه ما لا يعلمون، ووسم اليهود بالغضب لأن أصل كفرهم عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً.

ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

واعلموا عباد اللّه أن اللّه عز وجل قد أوجب علينا معاداة الكفار والمشركين، وأكد إيجابه، وحرم علينا موالاتهم وشدد فيها حتى إنه ليس في كتاب اللّه تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده.

* فمن الأدلة على تحريم موالاة المشركين قوله عز وجل في سورة النساء ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً** ﴾ (النساء: ١٣٩).

إلى أن قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ أَتُرِيدُونَ أن تَجْعَلُوا للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً** ﴾ (النساء: ١٤٤).

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

فيقول عز وجل منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُم العِزَّة ﴾ ثم أخبر أن العزة كلها له وحده لا شريك له ، والمقصود التهييج على طلب العزة من جانب الله تعالى ، والالتجاء إلى عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

* ومن الأدلة كذلك قوله عز وجل : ﴿ لَا يَتَّخِذ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُون المُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ (آل عمران : ٢٨) .

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ثم قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي ومن يوال الكافرين فليس من الله في شيء ، أي ـ فقد بريء من الله وبريء الله منه ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد حفظاً للإسلام والتوحيد .

* وقال تعالى : ﴿ تَرىَ كَثِيراً مِنْهُم يَتَولَّـونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون وَلو كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والنَّبِي وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُم فَاسِقُون ﴾ (المائدة : ٨٠) .

فرتب الله عز وجل على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب ، وأخبر أن ذلك لا يحصل إلا ممن ليس بمؤمن ، وأما أهل الإيمان بالله وكتابه ورسـوله فإنهم لا يوالونهم . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتولَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّه مِنْهُم إِنَّ اللَّه لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ ، فَتَرىَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهم مَرَضٌ يُسَارِعُون فِيهِمْ يَقُولُونَ نخشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرةٌ فَعَسى اللَّه أن يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْر مِنْ عِندِه فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِم نادِمِين ﴾ (المائدة : ٥١ ، ٥٢) .

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى ، وذكر أن من تولاهم فهو منهم ، أي من تولى اليهود فهو يهودي ، ومن تولى النصارى فهو نصراني ، وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر ، قال فظنناه يريد هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ الآية

وكذلك مَنْ تَوَلَّى المُشرك فهو مشرك ، لا فرق بين أهل الكتابين وغيرهم من الكفار .

ثم أَخْبَرَ تعالى أن الذين في قلوبهم مرض أي شك في الدين وشبهة يسارعون في الكفر قائلين ﴿ **نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرةٌ** ﴾ أي إذا أنكرت عليهم موالاة المشركين قالوا نخشى أن تكون الدولة لهم في المستقبل ؛ فيتسلطوا علينا فيأخذوا أموالنا ويشردونا من بلادنا وهذا هو ظن السوء بالله عز وجل .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَعَسَى اللَّهُ أن يَأتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أمرٍ مِنْ عِندِه فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أنفُسِهِم نَادِمِينَ** ﴾ وعسى من الله واجب ، والحمد لله الذي أتى بالفتح فأصبح أهل الظنون الفاسدة على ما أسروا في أنفسهم نادمين .

* وقال عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكم هُزُواً وَلعباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتُم مُؤْمِنِين** ﴾ (المائدة : ٥٧) .

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة أهل الكتابين وغيرهم من الكفار وبين أن موالاتهم تنافي الإيمان .

* وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وَإخْوَانَكُم أَوْلِيَاءَ إنْ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فَأولَئِك هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (التوبة : ٢٣) .

فنهى سبحانه وتعالى المؤمن عن موالاة أبيه وأخيه اللذين هما أقرب الناس إليه إذا كان دينهما غير الإيمان ، وبين أن الذي يتولى أباه وأخاه إذا كانا كافرين فهو ظالم ، فكيف من يتولى الكافرين الذين هم أعداء له ولآبائه ولدينه ، أفلا يكون هذا ظالماً بلى والله إنه لمن أظلم الظالمين .

* وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أن تؤْمِنُوا باللَّهِ رَبِّكُمْ إنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَة وَأنَا أعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ، إنّ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وألْسِنَتَهُمْ**

بِالْسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ، لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ يَفصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمِ إِنَّا بُرَءآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرنا بِكُمْ وبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَه إلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيم لأبيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلنَا وإلَيْكَ أَنْبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ ﴾ (الممتحنة : من ١ : ٤) إلى أن قال اللَّه عز وجل في آخر السورة ﴿ يَا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوا قَوْماً غَضِبَ اللَّه عَلَيهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِن الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ (الممتحنة : ١٣) .

وقد ثبت في الصحاح أن هذه السورة سورة الممتحنة نزلت في رجل من الصحابة رضي اللَّه عنهم يسمى حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم عام الفتح ، فأنزل اللَّه عز وجل هذه الآيات ، وأخبر نبيه ﷺ بخبر الكتاب ، وبعث رسول اللَّه ﷺ علي بن أبي طالب في إثر المرأة التي ذهبت بالكتاب ، فوجده في عقيصة رأسها ، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ يعتذر ويحلف أنه ما شك ولكنه ليس له من يحمي من وراءه من أهل مكة ، وأنه أراد بهذا يداً عند قريش ، واستأذن عمر بن الخطاب في قتله ، فقال النبي ﷺ : **«وما يدريك أن اللَّه اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[1] .

فلولا أنه كان من أهل بدر لقتل لهذا الكتاب .

فهذه السورة مع سبب نزولها من الأدلة على وجوب عداوة الكفار ، ومقاطعتهم فنهى تعالى أهل الإيمان عن اتخاذ عدوه ـ وعدوهم أولياء ـ وهذا تهييج على عداوتهم ، ولنضرب لذلك مثلاً وللَّه المثل الأعلى ، فقدر نفسك مملوكاً ، وسيدك له عدو من الناس ، فهل يصح عندك ويجوز في عقلك أن تتخذ عدو سيدك ولياً ، ولو لم ينهك عن ذلك ؟ ! فكيف إذا نهاك عن ذلك أشد النهي ، ورتب على موالاتك له أن يعذبك وأن يسخط عليك ، وأن يوصل إليك ما تكره ، ويمنع عنك ما تحب ، فكيف إذا كان هذا العدو لسيدك عدو لك

---

(١) رواه البخاري عن علي رضي اللَّه عنه (١٤٣/٦) الجهاد : باب الجاسوس .

أيضاً ، فإذا واليته مع ذلك كله إنك إذاً لمن الظالمين .

ثم قال عز وجل : ﴿ تُلقُونَ إلَيْهِمْ بِالمَودَّةِ ﴾ فسمى اللّه عز وجل مجرد إرسال هذا الكتاب إلقاءً بالمودة ، ثم بين عز وجل ما يدعو إلى عداوتهم وهو كفرهم بالذي جاء من عند اللّه ، وإخراجهم النبي ﷺ وأهل الإسلام لأجل الإيمان باللّه ، فقال عز وجل : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الْحَقِّ يُخرِجُونَ الرَّسُولَ وَإيَّاكُم أنْ تُؤْمِنُوا بِاللّهِ رَبِّكُم ﴾ ومما يدعو إلى عداوتهم وبغضهم أيضاً أنهم يضمرون في أنفسهم أنهم إذا تمكنوا من المسلمين لا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة فقال عز وجل : ﴿ إنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أعْداءً وَيَبْسُطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُمْ وَألْسِنَتَهُمْ بِالْسُّوءِ وَوَدُّوا لَو تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا مشاهد بالعيان فضلاً عن الدليل والبرهان ، ففي كل زمان وفي كل مكان تكون الغلبة فيه لليهود أو النصارى ويتمكنون من المسلمين يسومونهم سوء العذاب .

لما استولت الحبشة على إقليم إرتريا المسلم ، واستلم هيلاسلاسي الكافر السلطة ، وضع خطة لإنهاء المسلمين خلال خمسة عشر عاماً ، وتباهى بخطته هذه أمام الكونجرس الأمريكي ، وسن تشريعات لإذلال المسلمين ، منها أن عليهم أن يركعوا لموظفي الدولة ، وإلا يُقتَّلُوا وأمر أن تستباح دماؤهم لأقل سبب ، وأصدر أمره بإغلاق مدارس المسلمين ، وأمر بفتح مدارس مسيحية ، وأجبر المسلمين على إدخال أبنائهم فيها ليصبحوا مسيحيين .

وعين حكاماً فجرة على مقاطعات إرتريا ، بدأ أحدهم عمله بأن أمر أن لا يقطف الفلاحون ثمار أراضيهم إلا بعد موافقته ، وكان لا يسمح بقطافها إلا بعد أن تتلف ، وأخيراً نهب جميع ممتلكات الفلاحين المسلمين ، وأمر أن تبنى كنيسة عند مدخل كل قرية ، ولم يكتف بذلك بل بنى دوراً للعاهرات حول المساجد ، ومعها الحانات التي كان يسكر فيها الجنود ليبولوا بها ويراقصوا العاهرات وهم سكارى ، وكافأه هيلاسلاسي بأن عينه وزيراً للداخلية .

وقد سجل التاريخ على صفحات سوداء ما حدث للمسلمين في أسبانيا والفلبين والأمثلة كثيرة لا تحصى وسبب ذلك شدة البغضاء للإسلام وأهله .

كما قال اللّه عز وجل : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبُغضَاءُ مِن أفْواهِهِم وَمَا تُخْفِي

صُدُورهُم أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران : ١١٨) .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَن تنفعَكُمْ أَرْحَامُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُم يَوم الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير ﴾ (الممتحنة : ٣) .

فبين عز وجل أن كـون الرجل له أرحام وأولاد عند المشركين لا يبيح له موالاتهم ، كما اعتذر حاطب بن أبي بلتعة ويجب على المسلم أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما .

ثم بين تعالى أن عدم موالاة المشركين والبراءة منهم هو الصراط المستقيم الذي عليه جميع المرسلين فقال عز وجل : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ فأمرنا اللّه عز وجل أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين في قولهم لقومهم ﴿ إِنَّا بُرَءآءُ مِنْكُمْ ومِمَّا تَعْبُدون مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وقدم البراءة من المشركين العابدين غير اللّه على البراءة من الأوثان المعبودة من دون اللّه ، لأن البراءة من المشركين تستلزم البراءة من معبوداتهم ، كما قال الخليل كذلك : ﴿ وأَعْتزِلكُمْ وَمَا تَدْعُون مِن دُونِ اللّه وأَدْعُو ربِّي عَسَى أَنْ لاَ أَكُون بِدُعاء ربِّي شَقِيّاً ﴾ (مريم : ٤٨) .

فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم ، ثم قال عز وجل في خاتمة هذه السورة المباركة . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوا قَوْمَاً غضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (الممتحنة: ١٣).

اللهم أعِزّ الإسلام والمسلمين ، وأذل الكفر والكافرين ، وأعـلِ كلمة الحق والدين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ، ولا يؤمنون بوعدك ، اللهم العن اليهود والنصارى ، وصـلِّ اللّهم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

في ذم الحرص على المال والشرف[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نفْس وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبَاً ﴾ (النساء : ١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حِرص المرءِ على المال والشَّرَفِ لدينه**»[2] .

---

(١) رسالة ابن رجب في شرح الحديث « وما ذئبان جائعان » .

(٢) رواه الترمذي (٩/٢٣٢ ، ٢٢٣) الزهد : باب حرص المرء على المال والشرف لدينه ، وقال الترمذي =

فهذا مثل عظيم جداً ضربه رسول الله ﷺ لبيان فساد دين المرء مع حرصه على المال والشرف أي الرفعة في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بأقل من فساد الغنم التي غاب عنها رعاؤها وأرسل فيها ذئبان جائعان ، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل ، فأما الحرص على المال فهو نوعين : أحدهما شدة محبة المال مع شدة طلبه مع وجوهه مع الجهد والمشقة ، ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي يمكن أن يشتري به صاحبه الدرجات العلى والنعيم المقيم ، في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلا ما قدر وقسم ، ثم لا ينتفع به بل يتركه لغيره .

قيل لبعض الحكماء : إن فلاناً جمع مالاً . قال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها ؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

كان عبد الواحد بن زيد يقول : يا إخوتاه لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غداً في المعاد ثم يَتكبر .

وكان يقول : الحرص حرصان حرص فاجع وحرص نافع ، فأما النافع فحرص المرء على طاعة الله ، وأما الحرص الفاجع فحرص المرء على الدنيا ، وهو مشغول معذب لا يسر ولا يلذ بجمعه لشغله ، فلا يفرغ من محبة الدنيا لآخرته .

قال بعضهم :

لا تَغبطن أخا حِرْص على طمع	وانظر إليه بعينِ الماقتِ القالي
إن الحريصَ لمشغولٌ بثروته	عن السرور لما يحوي من المال

قال آخر :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه	مفكراً أي باب منه يغلقه
جمعت مالاً ففكر هل جمعت له	يا جامع المال أياماً تفرقه

= هذا حديث حسن صحيح وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وهو كما قال ورواه أحمد في المسند (٤٥٦/٣) والنسائي وابن حبان في صحيحه .

ما المال مالك إلّا يوم تنفقه المال عندك مخزون لوارثه

لم يأل في طلب مما يؤرقه إنَّ القناعة من يحلل بساحتها

كتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا : أما بعد فإنك قد أصبحت حريصاً على الدنيا تخدمها ، وهي تخرجك عن نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل ، كأنك لم تر حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً ، ولا ميتاً عن كثير ، ولا متبلغاً من الدنيا باليسير .

عاتب أعرابي أخاً له على الحرص فقال له : يا أخي أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب من قد كفيته .

وأنشد بعضهم :

حتى متى أنت في حل وترحال وطُول سعي وإدبَارِ وإقبال

ونازح الدارِ لا ينفك مغترباً عن الأحبة لا يدرون بالحالِ

بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطُر الموت من حِرصٍ على بالِ

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة إن القنوعَ الغنى لا كثرة المالِ

النوع الثاني من الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوق الواجبة ، فهذا من الشح المذموم قال اللّه تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ** ﴾ (الحشر : ٩) .

وفي سنن أبي داود عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ قال : «**اتقوا الشُح فإن الشُح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[١] .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : «**اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكُوا دماءهم واستحلُوا محارمهم**»[٢] .

أما الحرص على الشرف فهو أشد إهلاكاً من الحرص على المال ، فإن

---

(١) رواه أبو داود (١٥/٥) الزكاة : باب في الشح ، والحاكم (١١/١) . وصححه شعيب الأرناؤوط .

(٢) رواه مسلم (١٣٤/١٦) البر والصلة : باب تحريم الظلم ورواه أحمد (٣٢٣/٣) .

طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال ، وضرره أعظم والزهد فيه أصعب ، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف .

والحرص على الشرف نوعان : أحدهما : طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال وهذا خطر جداً وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها . قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٢) .

وقلّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق ، بل يوكل إلى نفسه ، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة : **«يا عبدَ الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»**[1] .

قال بعض السلف : ما حرص أحد على ولاية فعدل فيها .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **«إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»**[2] .

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رجلين قالا للنبي ﷺ : يا رسول الله أمّرنا . قال : **«إنّا لا نؤتي أمرنا هذا من سأله ولا من حرص عليه»**[3] .

ومن دقيق حب الشرف طلب الولايات لمجرد علو المنزلة على الخلق ، والتعاظم عليهم ، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه

---

(١) رواه البخاري (١٣/١٢٣) باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها ، ومسلم (١٢/٢٠٦ ، ٢٠٧) الإمارة النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها .

(٢) رواه البخاري (١٣/١٢٥) الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة وقوله : « نعم المرضعة » قال البغوي : مثل ضربه للإمارة وما يصل إلى الرجل من المنافع فيها واللذات وضرب «الفاطمة» مثلاً للموت الذي يهدم عليه تلك اللذات ويقطع منافعها عنه .

(٣) رواه البخاري (١٣/١٢٥) الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة ومسلم (١٢/٢٠٧) الإمارة : النهي عن طلب الإمارة .

وذلهم في طلب حوائجهم منه ، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية اللّٰه وإلهيته ، وربما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه ليضطرهم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه ، ويتعاظم بذلك ويتكبر به ، وهذا لا يصلح إلا للّٰه وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعُونْ ﴾ (الأنعام : ٤٢) .

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٤) .

فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم ، وأدهى وأمر من الشرك ، والشرك أعظم الظلم عند اللّٰه .

ومن دقيق الحرص على الشرف كذلك أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ، ويثنى عليه بها ويطلب من الناس ذلك ، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه ، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح ، وهذا يدخل في قوله : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (آل عمران : ١٨٨) .

ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أفعاله ، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق ، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك للّٰه وحده لا شريك له ، فإن النعم كلها منه .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه اللّٰه شديد العناية بذلك ، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يقرأ عليهم وفيه أمر بالإحسان إليهم وإزالة المظالم التي كانت عليهم ، وفي الكتاب ولا تحمدوا على ذلك إلا اللّٰه فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري .

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة ، فإنها كانت لها أربع بنات ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد اللّٰه ، ثم فرض للثالثة فشكرته فقال إنما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله ، فمري هذه الثلاث يواسين الرابعة .

والنوع الثاني من الحرص على الشرف، طلب الشرف على الناس بالأمور الدينية :

وهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد إفساداً وخطراً، فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عند اللَّه من الدرجات العُلَى والنَّعيم المقيم.

قال الثوري : إنما فضل العلم لأنه يتقى به اللَّه، وإلا كان كسائر الأشياء. وقد روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عنه ﷺ قال : **«من تعلم علماً مما يبتغى به وجهُ اللَّه لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»**[1].

يعني ريحها. وسبب هذا واللَّه أعلم أن في الدنيا جنة معجلة، وهي معرفة اللَّه ومحبته والأنس به والشوق إليه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك فمن دلَّه علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة.

ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة عالم لم ينفعه اللَّه بعلمه، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به، فهذا حال من طلب الدنيا بعلمه.

* ومن طلب الشرف بالدين أن يطلب العبد بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعالي عليهم.

عن ابن مسعود قال : **«لا تعلموا العلم لثلاث لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند اللَّه فإنه يبقى ويفنى ما سواه»**.

---

(١) أبو داود (١٠/٩٧، ٩٨) العلم : باب في طلب العلم لغير اللَّه، ورواه ابن ماجه (١/٩٣) في المقدمة : باب الانتفاع بالعلم والعمل به قال عبد القادر الأرناؤوط وفي سنده فليح بن أبي المغيرة الخزاعي أبو يحيى المدني وهو صدوق كثير الخطأ، ومع ذلك فقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وجود إسناده الحافظ العراقي، ولكن توبع في جامع بيان العلم (١/١٩٠) فهو به حسن.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : «**إن أول الخلق تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة ، منهم العالم الذي قرأ القرآن ليُقالَ قارىء ، وتعلم العلم ليقال عالم . وأنه يقال لـه قد قيل ذلك وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» .

قال سفيان الثوري : إن هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها .

* ومن طلب الشرف بالدين الجرأة على الفتيا ، والحرص عليها ، والمسارعة إليها ، والإكثار منها .

قال علقمة : كانوا يقولون أجرؤكم على الفتيا أقلكم علماً .

وعن البراء قال : أدركت عشرين ومائة من الأنصار ، من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة ، ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه كفاه . وفي رواية فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .

وقال ابن مسعود رضي اللَّه عنه : أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم ، وأجهلهم بها أنطقهم ، وقال بعضهم : إنما العالم الذي إذا أفتى فكأنما يقلع ضرسه .

وقال بعضهم : العلم ثلاثة حلال وحرام ولا أدري .

وقال الإمام أحمد : ليعلم المفتي أنه يُوَقِعُ عن اللَّه أمره ونهيه ، وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك .

وكان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان .

وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ثم يقول ما وجدت أحداً تسأله غيري ؟ وقال قد تكلمت ولو وجدت بُدّاً ما تكلمت ، وإن زماناً أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء .

وقال بعض العلماء لبعض المفتين : إذا سألت عن مسألة فلا يكن هَمُّك تخليص السائل ، ولكن تخليص نفسك أولاً .

وقال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات : ١) .

فلا ينبغي لأحد أن يتكلم في مسألة من مسائل الدين حتى يرجع إلى الكتاب والسنة أولاً ؛ حتى لا يقدم رأيه وهواه على كلام الله عزّ وجلّ وكلام رسوله ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ (النحل : ١١٦) .

* ومن طلب الشرف بالدين كذلك الدخول على الملوك والدنو منهم ، وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلى نيل الشرف والرياسات فيها .

خَرَّجَ الإمام أحمد وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفي حديثه : « **وما ازداد أحد من السلطان دنواً إلاّ ازداد من الله بُعداً** »[1] .

ومن أعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة ، أن يصدقهم بكذبهم ، ويعينهم على ظلمهم ، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم .

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه وليس بوارد عليَّ الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد عليَّ الحوض**»[2] .

* ومن طلب الشرف بالدين محبة الشهرة والسعي إليها ، كان السلف رضي الله عنهم يكرهون الشهرة أشد الكراهة ، منهم أيوب والنخعي وسفيان وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين ، وكذلك الفضيل وداود الطائي وغيرهم من الزهاد

---

(١) قال الهيثمي : لم أجده في نسختي من أبي داود ـ رواه أحمد والبزار وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعي وهو ثقة ـ مجمع الزوائد (٥/٢٤٦) .

(٢) قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط وأحد أسانيد البزار رجال الصحيح ورجال أحمد كذلك ـ مجمع الزوائد (٥/٢٤٨) .

والعارفين ، وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم ، ويسترون أعمالهم غاية الستر

كان محمد بن واسع يقول : لو أن للذنوب رائحةً ، ما استطاع أحد أن يجالسني .

وكان إبراهيم النخعي إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطاه .

وكان أويس وغيره من الزهاد إذا عُرفوا في مكان ارتحلوا عنه .

وقد تبين بما ذكرناه أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء حتى لا يبقى منه شيء .

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها ، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره ، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله ، قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (النازعات : ٣٧) .

قال الحسن : إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة .

وقال وهيب بن الورد : إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل .

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس وطلب العلو في منازلها ، والحرص على ذلك والسعي في أسبابه ، وأن لا يقنع الإنسان منها بالدون مع قدرته على العلو قال الله عز وجل : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون ﴾ (المطففين : ٢٦) .

وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غدا حسرةً وندامةً وذلةً وهواناً وصغاراً ، فهو الذي يشرع الزهد فيه والإعراض عنه ، وللزهد فيه أسباب عديدة :

* فمنها : نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة ، فينظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمكذبين ومن نازع الله رداء الكبرياء .

وفي السنن عن النبي ﷺ قال : **«يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بُوْلَس يعولهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخَبَال»**[1] .

استأذن رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القصص على الناس فقال : إني أخاف أن تقص عليهم فترتفع عليهم في نفسك حتى يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة .

* ومنها : نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة ، فإنه من تواضع لله رفعه .

* ومنها : وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ، ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يجعله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى ، وهيبة الخلق لهم في الظاهر ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن ، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل والرياسة الفانية قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف : ٢٥) .

وقال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (فاطر : ١٠) .

والله عز وجل هو العزيز ومن أراد العزة فليطع العزيز .

كان حجاج بن أرطأة يقول : قتلني حب الشرف ، فقال له سوار : لو اتقيت الله شرفت ، وفي ذلك قيل :

أَلاَ إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنيا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمْ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا حَقَقَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أو حَجَمْ

(١) رواه الترمذي (٩/١٢٠٣-١٢٠٤) أبواب صفة القيامة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وحسنه الألباني في الجامع وحسنه عبد القادر الأرناؤوط في تحقيق جامع الأصول – وطينة الخبال جاء تفسيرها في بعض طرق الحديث قيل يارسول الله ﷺ : « **وما طينة الخبال ؟ قال : هي صديد أهل النار** » .

قال بعضهم : من أشرف وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده .

كان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له وكذلك كان مالك بن أنس يهاب أن يسأل حتى قال فيه القائل :

يَــدَعُ الْجَــوَابَ وَلاَ يُــراجَــعُ هَيْبَــةً وَالــسَّــائِــلُونَ نَــوَاكِسُ الأَذْقَــانِ
نُــورُ الــوَقَــارِ وَعِــزُّ سُلْطَانِ التُــقَى فَــهُــوَ الْــمَــهِــيــبُ وَلَــيْسَ ذَا سُــلْطَانِ

قال محمد بن واسع : إذا أقبل العبد بقلبه على الله ، أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين .

وكتب وهب بن منبه إلى مكحول : أما بعد فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفاً ومنزلة ، فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى . واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى ، ومعنى هذا أن العلم الظاهر من تعلم الشرائع والأحكام والفتاوى والقصص والوعظ ونحو ذلك مما يظهر للناس ، يحصل به لصاحبه عندهم منزلة وشرف ، والعلم الباطن المودع في القلوب من معرفة الله وخشيته ومحبته ومراقبته والأنس به والشوق إلى لقائه والتوكل عليه والرضا بقضائه ، والإعراض عن عرض الدنيا الفاني والإقبال على جوهر الآخرة الباقي ، كل هذا يوجب لصاحبه عند الله منزلة وزلفى وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف في الدنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه

قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً** ﴾ أي مودة في قلوب عباده (مريم : ٥٦) .

اللهم احفظنا بالإسلام قائمين ، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، ولا تشمت بنا الأعداء والحاسدين ، اللهم أعزنا بالإسلام وأعز الإسلام بنا ، اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

فضائل النبي ﷺ(١)

الحمد للّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والشكر له على ما أولى من نعمٍ سابقةٍ وأسدى ، نحمده سبحانه وهو الولي الحميد ، ونتوب إليه جل شأنه ، وهو التواب الرشيد .

ونشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له شهادة نستجلب بها نعمه ، ونستدفع بها نقمه ، وندخرها عدة لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم ، ونشهد أن محمداً عبده ورسـوله ، وصفيه من خلقه وخليله صلى اللّه عليه وعلى آله نجوم المهتدين ، ورجوم المعتدين ، ورضي اللّه عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته ، وحفظ شريعته ، وتبليغ دينه إلى سائر أمته ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

أما بعد ، ، ،

(فإن أصدق الحديث كتاب اللّه تعالى ، وخير الهُدى هُدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

وبعد ، ، ،

قال اللّه تعالى لنبينا ﷺ متمنناً عليه ومُعَرِّفاً لقدره لديه : ﴿ **وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ (النساء : ١١٣) .

---

(١) بداية السُول في تفضيل الرسول ﷺ العلامة العز بن عبد السلام بتحقيق وتعليق عبد اللّه محمد الصديق الغماري بتصرف واختصار .

وقد فضل اللّه عز وجل بعض النبيين على بعض فقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً** ﴾ (الإسراء : ٥٥) وقال عز وجل : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ** ﴾ (البقرة : ٢٥٣) .

أما حديث «لا تفضلوا بين أنبياء اللّه» وفي رواية «لا تُخيروا بين الأنبياء»[1] وهو بكلتا روايتيه في الصحيح ـ فالمراد به النهي عن التفضيل بمجرد الرأي الذي لا يستند إلى دليل ، أو المراد النهي عن التفضيل الذي يؤدي إلى نقص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو النهي عن التفضيل في النبوة نفسها ، وهي لا مفاضلة فيها لقوله تعالى : ﴿ **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ** ﴾ (البقرة : ٢٨٤) .

وقد دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنّة وإجماع الأمة على فضل نبينا ﷺ .

* فمن الأدلة على شرفه وفضله ﷺ أنه ساد الكل ﷺ كما في حديث عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه من قوله ﷺ : «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه** »[2] .

ولما كان ذكر مناقب النفس إنما يُذكر افتخاراً في الغالب ، أراد ﷺ أن يقطع وهم من توهم من الجهلة أنه يذكر ذلك افتخاراً فقال : «**ولا فخر**» .

* ومن الأدلة على شرفه ﷺ أن اللّه تعالى أخبره بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك ، بل الظاهر أنه لم يخبرهم ، لأن كل واحد منهم إذا طلبت منهم الشفاعة في الموقف ذكر خطيئته التي أصابها وقال: (نفسي نفسي) كما ورد في حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يذهبون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى يطلبون الشفاعة، فكل منهم يذكر أن اللّه غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ثم

---

(١) رواه البخاري بلفظ «لا تفضلوا بين أولياء اللّه» (٦/ ٤٥٠) الأنبياء : باب قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ يُونِسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ومسلم (١٥/ ١٣٠) الفضائل : فضل موسى عليه السلام .

(٢) رواه البخاري (٥/ ٧) الخصومات : باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ، ورواه مسلم (١٥/ ١٣٣) الفضائل : فضائل موسى ﷺ .

يقول : (نفسي نفسي) ويحيلهم على غيره حتى يأتوا عيسى فيقول لهم (لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) فإذا أتوا النبي ﷺ قال : «**أنا لها أنا لها**»[1] .

* ومنها أنه ﷺ أول شافع وأول مشفع ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ : «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع**»[2] .

فهو ﷺ أول من يشفع في الخلائق يوم القيامة ، كما في حديث الشفاعة المتقدم حين يذهب للشفاعة يستأذن على اللّه فيأذن له ، فإذا رأى اللّه تعالى خَرَّ ساجداً ، فيدعه اللّه ما شاء ثم يقال : «**ارفع رأسكَ محمد قل تسمع وسل تعط واشفع تُشَفَّع**»[3] .

وهذه هي الشفاعة العظمى في الخلائق كلهم يوم القيامة ، وهي المقام المحمود الذي اخْتُص به نبينا ﷺ في قوله تعالى ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (الإسراء : ٧٩) .

وعسى من اللّه واجب كما قال ابن عباس رضي اللّه عنهما ، ولنبينا ﷺ شفاعات أخرى ، منها شفاعته لأهل الجنة في دخولها ، فلا تفتح لأحد قبله ﷺ ، ومنها شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم حتى لا يدخلوها ، ومنها شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، ومنها شفاعته لأهل الكبائر من أمته . ومنها شفاعته في بعض أهله الكفار حتى يخفف عنهم عذاب النار ، وهذه خاصة بأبي طالب ففي صحيح البخاري عن العباس رضي اللّه عنه قال : قلت يا رسول اللّه ما أغنيت عن عمك وكان يدفع عنك ويحوطك قال : «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا

(١) أخرجه ابن حبان بسند صحيح وقال الألباني فى تحقيق بداية السول وهو مخرج فى ظلال الجنة وفي تخريج السنة برقم (٣٩٣) وله شاهد من حديث أبى سعيد الخدري عن الترمذي وغيره وحسنه وهو فى الصحيح رقم (١٥٧١) .

(٢) الحديث مخرج في الكتب الستة بألفاظ وطرق وهو في البخاري (٤٧٣/١٣) التوحيد : باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ومسلم (٥٣/٣ إلى ٦٠) الإيمان : باب الشفاعة .

(٣) رواه مسلم (٣٧/١٥) الفضائل : باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود في السنة ، والترمذي في المناقب .

لكان في الدرك الأسفل من النار»[1] .

* ومن شرفه وفضله ﷺ إيثاره ﷺ أمته على نفسه بدعوته ؛ إذ جعل الله عز وجل لكل نبي دعوة مستجابة ، فكل منهم تَعَجَّل دعوتَه في الدنيا ، وَاخْتَبَأَ هو ﷺ دعوته شفاعةً لأمته .

ففي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**لكل نبي دعوةٌ مستجابةٌ ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة ، فهي نائِلَةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً**»[2] .

وقد دلت الأحاديث الكثيرة على رحمة النبي ﷺ بأمته ، وإيثاره إياهم على نفسه ، ودعاؤه لهم في كل مناسبة تعرض له ، بل بلغ من شفقته عليهم أنه أخذه البكاء عند الدعاء لهم ، كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم : ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (إبراهيم : ٣٦) .

وقول عيسى : ﴿ **إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (المائدة : ١١٨) .

فرفع يده وقال : «أمتي أمتي» ثم بكى فقال الله تعالى يا جبريل : «اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[3] .

فصلى الله عليه وسلم وبارك وجزاه عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ فقال : ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِم يَعْمَهُونَ** ﴾ (الحجر : ٧٢) . وإن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم الله

---

(١) رواه البخاري (٧/١٩٣) مناقب الأنصار : قصة أبي طالب ، ومسلم (١/١٣٤ ، ١٣٥) ورواه أحمد عن ابن عباس وقال الألباني حفظه الله في التعليق عليه هذا الحديث نص في أن السبب في التخفيف إنما هو النبي عليه السلام أي شفاعته وليس هو عمل أبي طالب ، وهذه خصوصية للرسول ﷺ كرامة أكرمه الله تبارك وتعالى بها ، مع أن القاعدة في المشركين أنهم كما قال الله عز وجل : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ ولكن الله تعالى يختص بفضله من يشاء .

(٢) رواه البخاري (١١/٩٦) الدعوات : باب لكل نبي دعوة مستجابة ، ورواه مسلم (١٣/٧٥) الإيمان : باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته .

(٣) رواه مسلم (٣/٧٨) الإيمان : باب بشارة الأمة .

عز وجل بها ، لما فيها من البركة العامة والخاصة ، أخرج ابن جرير عن ابن عباس ، قال : ما خلق اللّه وما برأ وما ذرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت اللّه أقسم بحياة أحد غيره ، قال اللّه تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِم يَعْمَهُون ﴾ (الحجر : ٧٢) .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن اللّه تعالى وَقَّرَهَ في ندائه ، فناداه بأحب أسمائه وأسنى أوصافه فقال : «يا أيها النبي» وقال : «يا أيها الرسول» فنادى اللّه عز وجل الأنبياء بأسمائهم الأعلام فقال : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أنتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (الأعراف : ١٩) .

وقال : ﴿ يَا نُوحُ اهبِطْ بِسَلَامٍ ﴾ (هود : ٤٨) وقال : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صدَّقْتَ الْرؤيا ﴾ (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥) وقال : ﴿ يَا يحيَىَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم : ١٢) وما خاطب اللّه عز وجل نبينا ﷺ إلا بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِي ﴾ أو بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْرَسُول ﴾ ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا أحد عبيده بأفضل ما وجد فيه من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق ، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم .

وجمع اللّه عز وجل في الذكر بين خليله إبراهيم وخليله محمد ﷺ ، فذكر خليله إبراهيم باسمه وخليله محمد بكنية النبوة فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وَهَذَا النَّبِي ﴾ (آل عمران : ٦٨) . فكناه إجلالاً له ورفعة لفضل مرتبته ونباهته عنده ثم قدمه في الذكر على من تقدمه في البعث فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُم وَمِنك وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وعَيسَى ابْنِ مَرْيَم وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (الأحزاب : ٧) .

* ومن فضله وشرفه ﷺ أن اللّه عز وجل أمر الأمة بتوقيره واحترامه ، فأخبر عز وجل أن الأمم السابقة كانت تخاطب رُسُلهم بأسمائهم الأعلام كقولهم : ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُم آلِهَة ﴾ (الأعراف : ١٣٨) وقولهم : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبينَةٍ ﴾ (هود : ٥٣) . وقولهم : ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (الأعراف :

٧٧) ونهى الله عز وجل أمة النبي محمد ﷺ أن ينادوه باسمه فقال عز وجل . ﴿ **لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسولِ بَيْنَكُم كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً** ﴾ (النور : ٦٣) .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : (كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ ، قال : فقالوا يا نبي الله يا رسول الله) .

ونهى الله عز وجل أمة النبي أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته إعظاماً له ﷺ فقال عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُم لاَ تَشْعُرُون** ﴾ (الحجرات : ٢) .

* ومن فضله وشرفه ﷺ أن معجزة كل نبي تصرمت وانقضت ومعجزته ﷺ - وهي القرآن المبين - باقية إلى يوم الدين .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ وآله : «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الَّذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[1] .

قال العلماء : ليس المراد من الحديث حصر معجزاته ﷺ في القرآن وأنه لم يؤت غيره .

وقال عمرو بن سوار : (قال لي الإمام الشافعي : ما أعطى الله تعالى نبياً ما أعطى محمداً ﷺ . قلت : أعطى عيسى إحياء الموتى . فقال : أعطى محمداً ﷺ حنين الجذع فهذا أكبر من ذاك) .

— فمن معجزاته ﷺ حنين الجذع اليابس وهذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ كما روى أنس وابن عباس أن النبي ﷺ كان يخطب على جذع فلما اتخذ المنبر ذهب إلى المنبر فحن الجذع فاحتضنه فقال : «**لو لم أحتضنه لحَنّ إلى يوم القيامة**» .

— ومنها تفجير الماء من بين أصابعه قال بعضهم هذا مما تواتر أيضاً عنه ﷺ في مناسبات كثيرة عن جمع من الصحابة بعضها في الصحيحين كحديث

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ومسلم (٣٤١/١ ، ٤٥١) .

(٢) قال الألباني : هذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ وقد جمع قسطاً كبيراً من طرقها الحافظ ابن كثير في البداية والسيوطي في الخصائص عن جمع من الصحابة وقوله «لو لم احتضنه» عند ابن ماجة (١٤١٥) — بداية السول هامش ٤٠ .

أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «**رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوَضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم**»[1] .

— ومنها تسليم الحجر عليه ﷺ ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم عَلَيَّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن**»[2] .

— ومنها انشقاق القمر له ﷺ قال الله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِن يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ** ﴾ (القمر : ١ ، ٢) .

فقد سأل أهل مكة رسول الله ﷺ آيةً فأشار إلى القمر فانشق لإشارته ﷺ .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله عز وجل يكتب لكل نبي من الأنبياء من الأجر بقدر أعمال أمته وأحوالها وأقوالها ، وأمته شطر أهل الجنة .

فقد روى أحمد ومسلم والأربعة من حديث أبي هريرة بلفظ (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)[3] .

وأمته خير الأمم ﷺ ، وإنما كانوا خير الأمم لما اتصفوا به من المعارف والأحوال والأقوال والأعمال ؛ ولأجل هذا بكى موسى عليه السلام ليلة الإسراء بكاء غبطة غَبط بها النبي ﷺ إذ يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمة موسى عليه السلام ، وصح هذا في قصة المعراج من حديث (أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً وفيه . . . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فلما خلصت

---

(١) هذا مما تواتر أيضاً عنه ﷺ في مناسبات كثيرة عن جمع من الصحابة خرج أحاديثهم أبو نعيم والسيوطى . هامش بداية السول (٤١) للألباني

(٢) أخرجه مسلم (٧/٥٨-٥٩) والترمذي (٣٦٢٨) وحسنه والدارمي وأحمد وأبو نعيم في الدلائل تحقيق بداية السول .

(٣) رواه مسلم (٨/٦٢) وأبو داود (٢/٢٦٢) والترمذي (٢/١١٢) والدارمي وابن ماجة وأحمد وقال الترمذي هامش (٣٩-٤٠): حديث حسن صحيح – الصحيحة ٨٦٥ .

فإذا موسى ، قال : (جبريل) : هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي)[1] .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله تعالى أرسل كل نبي إلى قومه خاصة وأرسل نبينا ﷺ إلى الجن والإنس ولذلك تمنن بقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً** ﴾ (الفرقان : ٥١) .

ووجه التمنن أنه لو بعث في كل قرية نذيراً ، لما حصل لرسول الله ﷺ إلا أجر إنذاره لأهل قريته .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أنه ﷺ صاحب الوسيلة ، وهي أعلى درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وهي له ﷺ .

ففي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لِيَ الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة**»[2] .

* ومن شرفه ﷺ الكوثر الذي أعطاه الله عز وجل ، وهو نهر في الجنة وحوض في الموقف .

روى أحمد ومسلم وغيرهما عن أنس قال : **بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال لقد أنزلت عَلَيَّ آنِفاً سورة فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾** (الكوثر) .

ثم قال : «أتدرون ما الكوثر» ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإنه

---

(١) رواه البخاري (٧/٢٠١ ـ ٢٠٢) مناقب الأنصار : باب المعراج .

(٢) رواه البخاري (١/٩٣ ، ١٢١) ومسلم وأبو عوانة والنسائي والدارمي والبيهقي والسراج ـ إرواء الغليل (١/٣١٦) .

نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول يا رب إنه من أمتي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[1] .

* ومن شرفه وفضله ﷺ ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : «نَحْنُ الآخِرون السابقون يوم القيامة ، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فُرِضَ عليهم - يعني الجمعة - فاختلفوا فيه ، فهدانا اللّه له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد»[2] .

والمعنى أن هذه الأمة ببركة نبيها ﷺ آخر الأمم خلقاً ، وأولهم دخولاً الجنة يوم القيامة ، وفي الحديث كذلك أن اللّه عز وجل قد فرض على الأمم السابقة يوماً يعظمونه ويتعبدون فيه فوقع اختيار اليهود على يوم السبت والنصارى على يوم الأحد، وهدى اللّه عز وجل أمة النبي ﷺ ليوم الجمعة .

* ومن فضله ﷺ أنه أُحلَّت له الغنائم ، ففي الصحيحين عن جابر أن النبي ﷺ قال : «أُعطيتُ خمساً لم يَعْطَهُنَّ أحد قبلي ، نُصِرتُ بالرُّعب مسيرة شهر ، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطَهوراً ، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحل لأحد قبلي ، وأُعْطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثتُ إلى الناسِ عامة»[3] .

* ومن فضله ﷺ أن اللّه عز وجل أثنى على خُلُقِهِ فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

واستعظام العظيم للشيء يدل على إيغاله في العظمة .

* ومن فضله ﷺ أن اللّه عز وجل أنزل أمته منزلة العدول من الحكام ، فعن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ «يُدْعَى نوحٌ يوم

---

(١) رواه مسلم (٢/٤) وأبو عَوانة وأبو داود والنَّسائي وأحمد وقال الترمذي حسن صحيح - إرواء الغليل - ٢٤٢ .

(٢) رواه البخاري (٢/٣٥٤) الجمعة باب فرض الجمعة ، ومسلم (٦/١٤٢ ، ١٤٣) الجمعة : باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، ورواه النسائي كذلك في الجمعة باب إيجاب الجمعة .

(٣) رواه البخاري (١/٤٣٦) في التيمم : باب التيمم ، وفي المساجد وفي الجهاد ، ومسلم (٥/٣ ، ٤) في المساجد في فاتحة الكتاب .

القيامة فيقول : لبيك وَسَعْدَيْك يا رب . فيقول : هل بلَّغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسل عليهم شهيداً فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[1] (البقرة : ١٤٣) . والوسط العدل .

* ومن فضله ﷺ حفظ كتابه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وقال عن الكتب السابقة ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ٤٤) . فجعل حفظه إليهم فضاع .

* ومن فضله ﷺ عصمة أمته فلا تجتمع على ضلالة ، وحفظ طائفة من أمته لا تزال ظاهرة على الحق . كما في حديث البخاري وغيره «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر اللّه وهم كذلك**»[2] .

* ومن فضله وشرفه ﷺ أن اللّه عزّ وجلّ وهبه سبعين ألفاً من أمته ، يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب وجوههم مثل القمر ليلة البدر ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وليس هذا لأحد غيره ﷺ .

اللهمَّ إنا نسألك محبة المصطفى ﷺ كما آمنا به ولم نره ، ولا تفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله ، اللهمَّ اسقنا من حوضه شربةً هنيئةً مريئةً لا نظمأ بعدها أبداً .

اللهمَّ أحينا على سنته ، وأمتنا على ملته ، واحشرنا في زمرته .

---

(١) رواه أحمد (٣/٣٢) وابن ماجه وغيره بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البخاري باختصار .

(٢) رواه البخاري (١٣/٢٩٣) الاعتصام بالنية : باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وفي الأنبياء والتوحيد ورواه مسلم (١٣/٦٥) في الإمارة باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» .

الزكاة[1]

إن الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، ، ،

فإنَّ أصدق الحديث كتاب اللّه ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

وبعد ، ، ،

الزكاة عباد اللّه هي الركن الثالث من أركان هذا الدين ، قال النبي ﷺ : **«بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إلّه إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ، وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»**[2] .

وهي قرينة الصلاة في كتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ .

قال اللّه عز وجل : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة : ٥) . وقال عز وجل : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوَا الزكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** ﴾ (التوبة : ٥) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال

---

(١) تفسير القرطبي ـ تفسير ابن كثير ـ فقه الزكاة للقرضاوي ـ إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) البخاري (٤٩/١) الأيمان : باب دعاؤكم إيمانكم ، ومسلم (١٧٦/١) الإيمان باب أركان الإسلام ورواه الترمذي والنسائي .

له : «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فَادْعُهُم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللّه حجاب »[1] .

وفي الصحيحين كذلك عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على اللّه»[2] .

ولذا قال الصديق رضي اللّه عنه : «واللّه لأقَاتِلَنَّ من فَرَّقَ بين الصلاةِ والزكاة ، واللّه لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونها لرسول اللّه لقاتلتهم على منعها»[3] .

ولم يبال الصديق ولا من معه من الصحابة بتلك الشبهة الواهية التي تعلق بها بعض المانعين للزكاة ، فقد تمسكوا بظاهر قول اللّه عز وجل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِرُهُم وَتُزَكيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِم إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ١٠٣) .

فقالوا هذا خطاب للنبي ﷺ يقتضي بظاهره اقتصاره عليه ، فلا يأخذ الصدقة سواه ، وقالوا إن النبي ﷺ كان يعطينا عِوَضَاً عن الزكاة التطهير والتزكية لنا والصلاة علينا ، وصلاته سكن لنا ، وقد عدمنا ذلك من غيره ﷺ .

والشبهة التي تمسك بها القوم واهية الأساس ؛ حتى قال القاضي أبو

---

(١) رواه الترمذي (٣/٨٧ ، ١١٨) ومسلم (١/١٩٦ ، ١٩٧) الإيمان : باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام والبخاري (٨/٦٤) في المغازي : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، الزكاة : باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة .

(٢) رواه البخاري (٣/٢٦١) أول الزكاة وفي استتابة المرتدين ، ومسلم (١/٢١٢) الإيمان وأخرجه أبو داود في الزكاة والنسائي في الزكاة ، فضل أبي بكر الصديق .

(٣) في صحيح مسلم (١/٢٠٧) في الإيمان : الكلام على توبة الزنديق .

بكر بن العربي هذا كلام جاهل بالقرآن ، غافل عن مآخذ الشريعة ، متلاعب بالدين متهافت النظر .

فإن الخطاب وإن كان للنبي ﷺ في الأصل ، فهو خطاب لكل من يقوم بأمر الأمة من بعده ، فهو ليس من الخطاب الخاص به ﷺ ، وما قالوه من أن النبي ﷺ كان يعطيهم عوضاً عن الصدقة التطهير والتزكية والصلاة عليهم ولا يوجد ذلك في غيره فدعوى غير مسلمة ، فإن التطهير والتزكية إنما يتمان بواسطة الزكاة فهي أداة التطهير .

قال تعالى : ﴿ تُطَهِرهُم وَتُزَكِيهم بِهَا ﴾ (التوبة : ١٠٣) .

وكذلك الصلاة عليهم بمعنى الدعاء لهم ، فكل من يأخذ الزكاة من الإمام أو نائبه مأمور أن يدعو لمعطيها بالبركة والأجر ، ولا يختص بالنبي ﷺ وإن كان دعاؤه في المقام الأسمى في التأثير في سكن النفس وطمأنينتها .

فالزكاة تطهير للمال بإخراج حق اللّه تعالى فيه .

وتطهير للمزكي من الشح والبخل وحب المال ، وتطهير للفقير من الحسد والبغض للغني ، ورفع لمعنوياته بقضاء حاجاته وضروراته .

والزكاة في الإسلام :

* حق الفقراء في أموال الأغنياء ، وهذا الحق أوجبه اللّه عز وجل .

* وهذا الحق معلوم قد حددت الشريعة مقاديره وأنصبته المختلفة في أنواع الأموال ، ولم يترك تحديده لضمائر الناس .

* وهذا الحق كذلك على الدولة جبايتهُ وتوزيعه ، وعلى الحاكم أن يؤدب بما يراه من عقوبة على من يمتنع عن أداء هذه الفريضة بعد أخذها عنوةً ، وأي فئة ذات شوكة تتمرد على أداء هذه الفريضة فمن حق الإمام بل من واجبه أن يقاتلهم ، حتى يؤدوا حق اللّه وحق الفقراء في أموالهم .

* **وإن قصَّرَت الدولة في المطالبة بالزكاة وتقاعس المجتمع عن رعاية هذه الفريضة لا يسقط ذلك وجوبها على الأفراد ، فيجب عند ذلك على الأفراد إخراج الزكاة المفروضة في مصارفها الشرعية .**

* وإن تَعَدَّتِ الدولةُ الظالمة ، وأخذت من الأفراد الضرائب الباهظة ، لا يُسقط ذلك فرض الزكاة في أموالهم ، لأن الضرائب لا تؤخذ تحت شعار الزكاة ، ولا تُنفق في مصارف الزكاة التي حددتها الشريعة .

* وحصيلة الزكاة لا تُترك لأهواءِ الحكام ، ولا لتسلُّط رجال الكَهَنُوت كما هو الحال عند اليهود ، بل حدد الإسلام مصارفها في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٥٩) .

وتجب الزكاة بشروط أربعة :

حرية ، وإسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين ، قالوا : بأن الحرية شرط ، لأن العبد ناقص الملك .

وقالوا : الإسلام شرط ، لأن الزكاة طهرةٌ ، والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن اللّه تعالى قال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (المزمل : ٢٠) فخوطب بالزكاة من خُوطِب بالصلاة .

وقالوا إن الحول شرط ، لقوله ﷺ «ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول»[١] . وقالوا إن النصاب شرط ، لقوله ﷺ : «ليس في أقل من مائتي درهم زكاة ، وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة»[٢] .

وقد ورد الترهيب الشديد والوعيد الأكيد لمانعي الزكاة :

قال اللّه عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) . أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً كما في قوله

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الألباني حفظه الله : قال الحافظ في « التلخيص » لا باس بإسناده والآثار تعضده فيصلح للحجة ، وقال النووي رحمه الله في الخلاصة : هو حديث صحيح أو حسن.

(٢) رواه أبو عبيد (١١١٣/٤٠٩) والدارقطني (١٩٩) عن ابن أبي ليلى عن عبدَ الكريم عن عمرو بن شعيب وقال الألباني : صحيح وهو وإن كان في سنده ضعيف فهو صحيح باعتباره رساله من الشواهد ، قال الألباني : ثم وجدت للحديث طرقاً أخرى بسند صحيح عن علي رضي الله عنه خرجته في صحيح أبي داود (١٤،٣) فصح الحديث - إرواء ٧٨٧ - إرواء الغليل رقم ٨١٥ .

تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان : ٤٨) .

أي هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم .

ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة اللَّه عذب به ، هؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا اللَّه عنهم عذبوا بها .

كما كان أبو لهب جاهداً في عداوة رسول اللَّه ﷺ وامرأته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ، (فِي جِيدِهَا) أي عنقها (حَبْلٌ مِن مَسَدٍ) أي تجمع من حطب النار وتلقي عليه ، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا .

كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

قال بعض العلماء : لما طلبوا المال والجاه شان اللَّه وجوههم ولما طووا كشحاً عن الفقير إذا جالسهم كويت جنوبهم ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتماداً عليها كويت ظهورهم .

وقيل إنما خصَّ هذه الأعضاء لأن الغني إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه وقبض وجهه ، وإذا سأله طوى كشحه ، وإذا زاده في السؤال وأكثر عليه ولاه ظهره ، فرتب اللَّه العقوبة على حال المعصية .

وقد بينت سنّة النبي ﷺ كيفية هذا الكي .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : **«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»**[1] .

---

(١) مسلم (٧/٦٤، ٦٥، ٦٦) الزكاة : باب إثم مانع الزكاة.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجَاعَاً أقرع له زَبيبتَان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول أنا مالك . أنا كنزك»** ثم تلا النبي ﷺ الآية : **﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾**[1] (آل عمران : ١٨٠) .

أي إن المال يمثل له في صورة شجاع أقرع ، والشجاع الحية الذكر ، والأقرع الذي طال عمره وسقط شعره ، والزبيبتان نقطتان سوداوان فوق العينين ، وهو أخبث الحيات ، يطوقه ثم يأخذ بشفتيه فيقول : أنا مالك أنا كنزك .

ولم يقف الشرع عباد الله عن حد الوعيد بالعقاب الأخروي بل هدد بالعقوبة الدنيوية كل من يبخل بحق الله عز وجل . قال تعالى : **﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ، وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ، قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ، عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ، كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾** (القلم من ١٦ إلى ٣٣) .

فمانع الزكاة مهدد في الدنيا كذلك بزوال ماله .

وقال ﷺ : **«ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»**[2] .

---

(١) البخاري (٢٦٨/٣) الزكاة : باب إثم مانع الزكاة وفي تفسير سورة براءة وفي الحيل في الزكاة .

(٢) رواه الطبراني في الوسط ورواته ثقات ، والحاكم والبيهقي إلا أنهما قالا «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم - الترغيب والترهيب (١ / ٢٧٠) ومجمع الزوائد (٩٦/٣) والسنين جمع سنة وهي الجدب والقحط .

وقال ﷺ : «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطرَ من السماء ولولا البهائم لم يمطروا»[1] .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث مِنَّا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

وصلَّى اللَّه وسلَّم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٣٣ - ٣٣٤)، وقال البوصيري في «الزوائد» هذا حديث صالح للعمل به وقد اختلفوا في ابن مالك وأبيه ورواه الحاكم (٤/٥٤٠) وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وقال الألباني : بل هو حسن الإسناد فهذه الطرق كلها ضعيفة إلا طريق الحاكم فهو العمدة وهى إن لم تزده قوة فلا توهنه - الصحيحة ١٠٦ .

الزهد في الدنيا[1]

الحمد للّه الواحد القهار ، العزيز الغفار ، مكور الليل على النهار ، تذكرة لأولي القلوب والأبصار ، وتبصرة لأولي الألباب والاعتبار ، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار ، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار ، وملازمة الاتعاظ والإذكار .

أحمده أبلغ حمد وأزكاه ، وأشمله وأنماه .

وأشهد أن لا إله إلا اللّه ، البر الكريم ، الرؤوف الرحيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله ، الهادي إلى صراط مستقيم ، والداعي إلى دين قويم ، صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى سائر النبيين وآل كل وسائر الصالحين .

ثم أما بعد ،،،

خرَّجا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : **«إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج اللّه لكم من بركات الأرض ، قيل ما بركات الأرض ؟ قال زهرة الدنيا . قال رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت رسول اللّه ﷺ حتى ظننت أنه سينزل عليه . ثم جعل يمسح عن جبينه قال أين السائل ؟ قال : أنا . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا آكلة الخضر ، حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، من أخذه بحقه**

---

(١) مختصر من لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ـ ورياض الصالحين للنووي .

ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[1] .

كان النبي ﷺ يتخوف على أمته من فتح الدنيا عليهم ، فيخاف عليهم الافتتان بها ، ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أن النبي ﷺ قال للأنصار لما جاءه مال من البحرين : **«أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»**[2] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : **«إذا افتتحت عليكم خزائن فارس والروم أي قوم أنتم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : نقول كما أمرنا الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون»**[3] .

قوله ﷺ **«إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»** .

لما سمّى النبي ﷺ ذلك بركات الأرض ، وأخبر أنه أخوف ما يخاف عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه حيث سماه بركة ، فإن البركة إنما هي خير ورحمة ، وقد سمّى الله تعالى المال خيراً في مواضع كثيرة من القرآن فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات : ٨) وقال : ﴿ إن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) .

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (ص : ٣٢) . فلما سأله السائل : (هل يأتي الخير بالشر) صمت النبي ﷺ حتى ظنوا أنه أوحي إليه ، والظاهر أن الأمر كذلك ، ويدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث (فأفاق يمسح عنه الرحضاء) ، وهو

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٤٤) الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها . بلفظ « إن أكثر ما أخاف عليكم » ورواه في الجمعة وفي الجهاد وفي الزكاة ، ومسلم (٧/٤٢، ٤٣) الزكاة : باب التحذير من الاغترار بالدنيا .

(٢) رواه البخاري (١١/٢٤٣) الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ورواه مسلم (١٨/٩٥) أول كتاب الزهد، وهو في المسند (٤/١٣٧)، والترمذي وابن ماجه .

(٣) مسلم (١٨/٩٦) الزهد.

العرق . وكان النبي ﷺ إذا أوحي إليه ينحدر منه مثل الجُمان من العرق من شدة الوحي وثقله عليه .

وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان إذا سئل عن شيء لم يكن أوحي إليه فيه شيء انتظر الوحي فيه ولم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه ، فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال : أين السائل ؟ قال : ها أنا . فقال النبي ﷺ : «**إن الخير لا يأتي إلا بالخير**» . وفي رواية لمسلم (أوَ خير هو) في ذلك دليل على أن المال ليس بخير على الإطلاق ، بل منه خير ومنه شر ، ثم ضرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه ويصرفه في حقه ، ومن يأخذه من غير حقه ويصرفه في غير حقه ، فالمال في حق الأول خير ، وفي حق الثاني شر ، فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق ، بل هو خير مقيد ، فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيراً له ، وإلَّا كان شراً له .

فأما المال فقال إنه خضرة حلوة ، وقد وصف المال والدنيا بهذا الوصف في أحاديث كثيرة ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام «**أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ثم سأله فقال له النبي ﷺ يا حكيم : إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع**»[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه عن النبي ﷺ قال : «**إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن اللّٰه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[2] .

واستخلافهم فيها هو ما أورثهم اللّٰه منها ، مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس والروم ، وحذرهم ﷺ من فتنة الدنيا عموماً ومن فتنة النساء خصوصاً ، وهذا من الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام لأن النساء من الدنيا ،

---

(١) البخاري (٣/ ٣٣٥) الزكاة: باب الاستعفاف عن المسألة وفي الوصايا وفي الجهاد وفي الرقاق ، ومسلم (١٢٦/٧) الزكاة بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

(٢) رواه مسلم (٥٣/١٧) الرقاق : باب أكثر أهل الجنة الفقراء وهو عند الترمذي في جملة حديث طويل في الفتن ورواه كذلك ابن ماجه وعند النسائي «فما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» وهي كذلك عند مسلم والترمذي واين ماجه .

بل النساء أول ما ذكره اللّه عز وجل من شهوات الدنيا في قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله ﷺ : «**وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا آكلة الخضر**» مثل ضربه رسول اللّه ﷺ لزهرة الدنيا وبهجة منظرها وطيب نعيمها وحلاوته في النفوس ، فمثله كمثل نبات الربيع وهو المرعى الأخضر الذي ينبت في زمان الربيع ، فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه وتستطيبه وتكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها ، لاستحلائها له فإما أن يقتلها فتهلك وتموت حبطاً ، والحبط : انتفاخ البطن من كثرة الأكل ، أو يقارب قتلها ويلم به فتمرض مرضاً . مخوفاً مقارباً للموت .

فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشره وجوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع ، ولا بكثير يشبع ، ولا يحلل ولا يحرم ، بل الحلال عنده ما حل بيده وقدر عليه ، والحرام ما حرم منه وعجز عنه .

تفنى اللذاذة ممن نال لذتها   من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها   لا خير في لذة من بعدها النار

شبه النبي ﷺ من يأخذ الدنيا بغير حقها بالبهائم الراعية من خضراء الربيع ، حتى تنتفخ بطونها من أكله ، فإما أن يقتلها وإما أن يقارب قتلها ، فكذلك من أخذ الدنيا من غير حقها ووضعها في غير وجهها ، إما أن يقتله ذلك فيموت به قلبه ودينه . وهو من مات على ذلك من غير توبة منه وإصلاح فيستحق النار بعمله .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَىً لَهُمْ ﴾ (محمد : ١٢) .

نهارُك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ   وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لاَزِمُ
وَتَتْعَبُ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَه غِبَّهُ   كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

أما استثناؤه ﷺ من ذلك آكلة الخضر ، فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته ، فإذا نفد واحتاج عاد إلى الأخذ منها قدر

الحاجة بحقه ، وآكلة الخضر دويبة تأكل من الخضر بقدر حاجتها إذا احتاجت إلى الأكل ، ثم تصرفه عنها فتستقبل عين الشمس ، فتصرف بذلك ما في بطنها ، وتخرج منه ما يؤذيها من الفضلات .

فهذا مثل المؤمن المقتصد في الدنيا يأخذ من حلالها وهو قليل بالنسبة إلى حرامها قدر بلغته وحاجته ، ويجتزي من متاعها بأدونه وأخشنه ، ثم لا يعود إلى الأخذ منها إلاّ إذا نفد ما عنده وخرجت فضلاته ، فلا يوجب هذا الأخذ ضرراً ولا مرضاً ولا هلاكاً ، بل يكون ذلك بلاغاً له يتبلغ به مدة حياته ، ويعينه على التزود لآخرته ، وفي هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته ، وقنع بذلك كما قال ﷺ : **«قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً فقنع به»**[1] .

خُذْ مِنَ الرِّزْقِ مَا كَفَى وَمِنَ الْعَيْشِ مَا صَفَا

كُلُّ هَذَا سَيَنْقَضِي كَسِرَاجٍ إِذَا انطَفَا

ثم قال ﷺ : **«إن هذا المال خضرة حلوة»** فأعاد مرة ثانية تحذيراً من الاغترار به ، فخضرته بهجة منظره وحلاوته طيب طعمه ، ولذلك تشتهيه النفوس وتسارع إلى طلبه ، ولكن لو تفكرت في عواقبه لهربت منه .

الذي بَشَّرَ أمته بفتح الدنيا عليهم حذرهم من الاغترار بزهرتها ، وخوفهم من خضرتها وحلاوتها ، وأخبرهم بخرابها وفنائها ، وأن بين أيديهم داراً لا تنقطع خضرتها وحلاوتها ، فمن وقف مع زهرة هذه العاجلة انقطع وهلك ، ومن لم يقف معها وسار إلى تلك وصل ونجا .

﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (التوبة : ٣٨) .

أرضيتم بخرابات البلى في الفردوس الأعلى يا لها صفقة غبن .

أتقنع بخسائس الحشائش والرياض ، معشبة بين يديك .

فالدنيا نابتة على مزبلة منتنة ، يا دنيء الهمة قنعت بروضة على مزبلة ،

---

(١) رواه مسلم (١٠٢/٣) والترمذي (٥٦/٢) وأحمد (١٦٨/٢) والبيهقي (١٩٦/٤) وقال الترمذي حسن صحيح ورواه ابن ماجة (٤١٣٨) عن ابن لهيعة وهو سيء الحفظ ولا بأس به في المتابعات – الصحيحة رقم ١٢٩ .

والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى .

وقوله ﷺ : «**من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المؤنة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**» .

قال سعيد بن جبير : متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة ، وما لم يلهك فليس متاع غرور ، ولكنه بلاغ إلى ما هو خير منه .

وقال بعضهم : كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم ، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا .

وقال أبو سليمان : الدنيا حجاب عن الله لأعدائه ، ومطية موصلة إليه لأوليائه ، فسبحان من جعل شيئاً واحداً ، سبباً للاتصال به والانقطاع عنه .

والقسم الثاني : من يأخذ المال بغير حقه ، فيأخذه من الوجوه المحرمة فلا يقنع منه بقليل ولا بكثير ، ولا تشبع نفسه منه ، ولهذا قال ﷺ : «**كالذي يأكل ولا يشبع**» وكان النبي ﷺ يتعوذ من نفس لا تشبع .

ومثل طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شرباً منه زاد عطشاً ، حتى يقتله .

وقال ﷺ : «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب**»[1] .

لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع ، ولو تذكر الجائع فضول مآلها لشبع .

هَبْ أَنَّـكَ قَـدْ مَلَكْتَ الأَرْضَ طَـرًّا ... وَدَانَ لَـكَ الْـعِبَـادُ فَـكَـانَ مَـاذَا
أَلَـيْسَ إِذاً مَـصِـيـرك جَـوْفُ قَـبْـرٍ ... وَيَـحْـثِي الْـتُّـربَ هَـذَا ثُمَّ هَـذَا

وقد ضرب الله في كتابه مثل الدنيا وخضرتها ونضرتها وبهجتها وسرعة تقلبها وزوالها وجعل مثلها كمثل نبات الأرض النابت من مطر السماء في تقلب

---

(١) البخاري (١١/٢٥٣) الرقاق : باب ما يتقى من فتنة المال • وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فتنة ﴾ ومسلم (٧/١٣٨) الزكاة: كراهة الحرص على الدنيا ، ورواه أحمد (١/ ٣٧٠).

أحواله ومآله قال تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ (الكهف : ٤٥) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخذتِ الأَرْضُ زُخْرُفها وَازَّيَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلناهَا حَصِيداً كأن لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس : ٢٤) .

فالدنيا وجميع ما فيها من الخضرة والبهجة والنضرة تتقلب أحوالها ، وتتبدل ثم تصير حطاماً يابساً ، وأجسام بني آدم وسائر الحيوانات كنبات الأرض ، تنقلب من حال إلى حال ، ثم تجف وتصير تراباً .

قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨) .

فينقلب ابن آدم من الشباب إلى الهرم ، ومن الصحة إلى السقم ، ومن الوجود إلى العدم .

قال ميمون بن مهران لجلسائه : يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض ؟

قالوا الحصاد . فنظر إلى الشباب فقال إن الزرع قد تدرحه الآفة قبل أن يستحصد .

عباد الله قبيح بالشباب تأخير التوبة ، وأقبح منه تأخير الشيخ لها ، فإن الرجل إذا شاب فهو كالحامل التي قد أتمت شهور حملها تسعة أشهر لا تنتظر إلا الولادة .

اللهم ارزقنا توبة نصوحاً

اختصام الملأ الأعلى[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ،،،

خرَّج الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غَداةٍ في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً ، فثوب بالصلاة ، وصلى وتجوز في صلاته ، فلما سلم قال : كما أنتم على مصافكم ، ثم أقبل إلينا فقال : سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب . قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب . قال : يا محمد فيم يختص الملأ الأعلى؟ فرأيته وضع كَفَّـهُ بين كَتِفَيَّ، حتى وجدت برد أنامله في صدري ، وتجلى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجمعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات .

قال : وما الدرجات ؟ قلت إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة

---

(١) مختصر من كتاب اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى - لابن رجب .

والناس نيام. قال سَلْ. قلت: اللَّهمَّ إني أسألك فِعلَ الخيرات، وترك المُنكرات، وحُبَّ المسَاكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنةً في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حُبكَ وحُبَّ من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك»[1].

وقال رسول اللّه ﷺ: **«إنها حق فادرسوها وتعلموها»**.

وفي بعض الروايات (المشي على الأقدام إلى الجماعات) بدل الجمعات وكذلك (إفشاء السلام) بدل (لين الكلام).

لم يكن من عادة رسول اللّه تأخير صلاة الصبح، ولهذا اعتذر لهم وفي الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة لعذر أو غيره وخاف خروج الوقت أنه يخففها حتى يدركها كلها في الوقت، وإن كانت تصح إذا أدرك ركعة واحدة في الوقت. وفي الحديث أيضاً أنَّ من رأى رؤيا تسره عليه أن يقصها على أصحابه وإخوانه لإدخال السرور عليهم.

وفيه دلالة على شرف النبي ﷺ بتعليمه ما في السماوات وما في الأرض، وتجلى ذلك له مما يختصم فيه الملائكة في السماء، كما أُرِيَ إبراهيمُ ملكوتَ السماواتِ والأرض.

أما وصف النبي ﷺ فهو حق وصدق، ومن أشكل عليه فهم شيء منه فليقل ما مدح اللّه به الراسخين في العلم، وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابه ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧).

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: فكلما سمع المؤمنون شيئاً من هذا الكلام قالوا: هذا ما أخبرنا به اللّه ورسوله وصدق اللّه ورسوله، وما زادهم إلاَّ إيماناً وتسليماً.

وفي الحديث دلالة أيضاً على أن الملأ الأعلى وهم الملائكة المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى اللّه عز وجل.

---

(١) الحديث خرجه الترمذي كذلك وقال حسن صحيح، وسئل عنه البخاري فقال حسن صحيح، وهو المسند (٢٤٣/٥) قال ابن رجب في إسناده اختلاف وله طرق متعددة وفي بعضها زيادة وفي بعضها نقصان.

قوله في الكفارات «إسباغ الوضوء في الكريهات ونقل الأقدام إلى الجمعات أو الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات» وسميت هذه كفارات لأنها تكفر الخطايا والسيئات ، ولذلك جاء في بعض الروايات (من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه) .

وهذه الأعمال الغالب عليها تكفير السيئات ، ويحصل بها أيضاً رفع الدرجات .

كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ قال : **«ألا أدلكم على ما يمحو اللّه به الخطايا ويَرْفَعُ به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول اللّه . قال إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخُطَا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»**[1] .

ولذلك ذكر اللّه عز وجل بعد آية الوضوء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وامسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ (المائدة : ٦) .

فقوله تعالى : ﴿ **لِيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ يشمل طهارة ظاهر البدن بالماء وطهارة الباطن من الذنوب والخطايا ، وإتمام النعمة إنما يحصل بمغفرة الذنوب وتكفيرها ، كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** ﴾ (الفتح : ٢) .

وقد وردت الأحاديث الكثيرة الدالة على تكفير الخطايا بالوضوء ، فروى مسلم عن عثمان رضي اللّه عنه أنه توضأ ثم قال : **«رأيت رسول اللّه ﷺ توضأ مثل وضوئي هذا ، ثم قال : من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة ﷺ »**[2].

وفيه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : **«إذا توضأ العبد**

---

(١) رواه مسلم (٣/١٤١) الطهارة: باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره. والترمذي الطهارة (١/٦٧) أبواب الطهارة : باب ما جاء في إسباغ الوضوء ثلاث مرات ، والنسائي (١/٨٩/٩٠) الطهارة: باب الفضل في إسباغ الوضوء .

(٢) مسلم (٣/١١٣) الطهارة: باب فضل الوضوء والصلاة بعده.

المسلم أم المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب»(١) .

كما وردت النصوص كذلك الدالة على كثرة الثواب على الوضوء بالإضافة إلى تكفير السيئات .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «تَبْلُغُ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»(٢) .

وفيه أيضاً عنه عن النبي ﷺ قال : «أنتم الغُرُّ المُحَجَّلُون يومَ القيامة مِنْ إسباغ الوضوء»(٣) .

وإسباغ الوضوء هو إتمامه وإبلاغه مواضعه الشرعية ، والثوب السابغ هو المغطي للبدن كله ، وخرج النسائي وابن ماجه من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : «إسباغ الوضوء شطر الإيمان»(٤) .

وخرجه مسلم بلفظ (الطهور شطر الإيمان)(٥) .

وإسباغ الوضوء على الكرهيات : يعني في حالة تكره النفس فيها الوضوء ، وقد فسر بحال نزول المصائب فالنفس تطلب الجزع فالاشتغال بالوضوء من علامة الإيمان ، وفسرت الكرهيات أيضاً بالبرد الشديد ، وكذلك عند النوم مع مدافعة النعاس .

وكل ما يؤلم النفس ويشق عليها فإنه كفارة للذنوب إن لم يكن للإنسان فيه

---

(١) مسلم (٣/١٣٢، ١٣٣) الطهارة: باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء والموطأ (١/٣٢) الطهارة، والترمذي (١/١٣) الطهارة: باب ما جاء في فضل الطهور .

(٢) مسلم (٣/١٤٠) الطهارة: باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل .

(٣) رواه مسلم بلفظة (٣/١٣٥) الطهارة: باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء والبخاري بلفظ «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» (١/٢٣٥) الطهارة: باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء ورواه النسائي في الطهارة: باب حِلْيَةِ المؤمن .

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي مالك الأشعري وصححه الألباني - صحيح الجامع (١/٣١٦) رقم ٩٣٨ .

(٥) (٣/١٠٠) الطهارة: فضل الوضوء - ورواه ابن ماجه كذلك .

بصنع كالمرض ، أو إذا كان الألم ناشئاً عن طاعة . كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة : ١٢٠) .

وكذلك ألم الجوع والعطش للصائم ، فكذا التألم بإسباغ الوضوء في البرد ، ويجب الصبر على هذا الألم ، فإذا حصل الرضا فذلك مقام العارفين ، وينشأ الرضا عن ملاحظة أمور :

أولاً : تذكر فضل الوضوء : انكسر ظُفر بعض الصالحات من السلف فضحكت وقالت أنساني حلاوة ثوابه مرارة وجعه .

وقال بعضهم : من لم يعرف ثوابَ الأعمال ثقلت عليه في جميع الأحوال .

الثاني : ملاحظة جلال من أمر بالوضوء . كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر . فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول أتدرون بين يَدَيْ مَنْ أريد أن أقوم .

الثالث : تذكر ما أعده الله عز وجل لمن عصاه من البرد والزمهرير .

الرابع : استحضار اطلاع الله على عبده في حال العمل ، وتحمل المشقة كما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور : ٤٨) .

وقالوا : خفف على الحراس مشقة السهر عِلْمُهُم بأن السلطان يُحِسُّ بهم .

الخامس : الاستغراق في محبة من أمر بهذه الطاعة ، وأنه يرضى بها ويحبها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

فمن امتلأ قلبه بمحبة الله أحب ما يحبه وإن شق على النفس وتألمت به . كما قيل : (وما لجرح إذا أرضاكم ألم) وقال بعض السلف : (أَحَبُّهُ إليَّ أَحَبُّهُ إِلَيْه) .

والسبب الثاني في تكفير الخطايا :

المشي على الأقدام إلى الجمعات والجماعات ، ولا سيما إذا توضأ الرجل في بيته ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : «**صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صلِّ عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**»[1] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة : (كل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة) . وفيهما عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال : «**إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها مَمْشَى فأبعدهم**»[2] .

ومع هذا فنفس الدار القريبة من المسجد أفضل من الدار البعيدة عنه ، لكن المشي إلى الدار البعيدة أفضل ، وثواب المشي إلى المساجد في الظلم النور التام في ظلم القيامة ، كما في سنن أبي داود والترمذي عن بريدة عن النبي ﷺ قال : «**بشر الْمَشَّائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»[3] .

---

(١) البخاري (٢/١٣١) الأذان : باب فضل صلاة الجماعة ، ومسلم (٥/١٦٥، ١٦٦) المساجد: باب فضل الصلاة المكتوبة في جماعة ، ورواه كذلك النسائي في الإمامة (٣/١٠٣) والترمذي في الصلاة.

(٢) رواه البخاري (٢/١٣٧) الأذان: باب فضل صلاة الفجر في جماعة، ومسلم (٥/١٦٧) المساجد فضل الصلاة المكتوبة في جماعة.

(٣) رواه أبو داود (٥٥٧) الصلاة والترمذي (٢/٢٣ عارضة) الصلاة وقال : هذا حديث غريب وابن ماجة (٧٧٩) وصححه الألباني .

وقد قال بعض السلف : الوضوء يكفر الجراحات الصِغار ، والمشي إلى المسجد يكفر أكثر من ذلك ، والصلاة تكفر أكثر من ذلك ، على أن الكبائر لا تكفر بذلك لما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »** .

فانظر يا عبد اللّه كم تَيسَّر لك من أسباب تكفير الخطايا ؛ لعلك تطهر منها قبل موتك ، فتلقاه طاهراً ، فتصلح لمجاورته في دار السلام ، فإن اللّه عز وجل طيبٌ لا يقبل إلا طيباً .

قوله في الكفارات (الجلوس في المساجد بعد الصلوات) أي انتظاراً لصلاة أخرى كما في حديث «وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط» أي بمنزلة الرباط في سبيل اللّه عز وجل .

ويدخل في قوله والجلوس في المساجد بعد الصلوات الجلوس للذكر والقراءة وسماع العلم وتعليمه نحو ذلك ، لا سيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ : **«أنه لما أخر صلاة العشاء الآخرة ثم خرج فصلى بهم ثم قال لهم : إنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة»**[1] .

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال : **«وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللّه فيمن عِنْدَهُ»**[2] وبالجملة فالجلوس في المساجد للطاعات له فضل عظيم . قال سعيد بن المسيب : من جلس في المسجد فإنما يجالس اللّه عز وجل .

وهو أيضاً من السبعة الذين يظلهم اللّه بظل عرشه .

---

(١) رواه البخاري بلفظ «ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة » (٢/ ١٣١) الأذان : باب فضل صلاة الجماعة ورواه مسلم (٥/ ١٦٧) فضل الصلاة المكتوبة في جماعة.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢١ ، ٢٢) الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، وأبو داود (١٣/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) الأدب: باب في المعونة للمسلم، والترمذي في الحدود وفي البر والصلة.

ولما كانت المساجد بيوت الله وأضافها إلى نفسه تشريفاً لها ؛ تعلقت قلوب المحبين لله عز وجل بها لنسبتها إلى محبوبهم ، وارتاحت إلى ملازمتها لإظهار ذكره .

قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وإيتَاءِ الزكَاةِ يَخافُونَ يَوْمَاً تَتَقلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَار ﴾ (النور : ٣٦ : ٣٧) .

قوله ﷺ في ذكر الدرجات (إطعام الطعام) .

فإطعام الطعام من أعظم الأسباب الموصلة إلى أعلى درجات الجنة ، وقد وصف الله عز وجل الأبرار بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (الإنسان : ٨) .

أي على حبهم للطعام وحاجتهم إليه ، وقيل على حبهم لإطعام الطعام طيبة به أنفسهم، وفي المسند وجامع الترمذي عن علي عن النبي ﷺ **«إنّ في الجنةِ غُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها. قالوا: لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وصلى بالليل والناس نيام»**[1] .

فإطعام الطعام يوجب دخول الجنة ويباعد عن النار وينجي منها كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد : ١١ ، ١٦).

وأفضل إطعام الطعام الإيثار مع الحاجة كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩) .

وكان بعض السلف يؤثر بفطوره غيره ويصبح صائماً ، وكان ابن عمر لا يفطر إلا مع اليتامى والمساكين وربما علم أن أهله قد ردوهم عنه فلم يفطر تلك الليلة قال بعضهم إذا أكلته كان في الحش وإذا أطعمته كان عند الله موفوراً

---

(١) رواه أحمد (٣٤٣/٥) والبيهقي في شعب الإيمان ورجاله ثقات غير ابن معانق وهو مجهول وعزاه المنذري لابن حبان في صحيحه وله شاهد من حديث ابن عمر وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١١٩ ومشكاة المصابيح رقم ١٢٣٢

فيا من يطمع في علو الدرجات من غير عمل صالح ، هيهات هيهات ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (الجاثية : ٢١) .

قوله ﷺ في ذكر الدرجات كذلك (لين الكلام) وفي رواية (إفشاء السلام) وهو داخل في لين الكلام . وقد قال اللّه عز وجل : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (البقرة : ٨٣) . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يقُولُوا الَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَينهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : «والكلمة الطيبة صدقة»[1] .

وفيه أيضاً : «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طَيِّبة»[2] .

أما كون إفشاء السلام من موجبات الجنة ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لا تَدْخلُوا الْجَنَّةَ حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»[3] .

هكذا قرن الإحسان بالقول عقب الإحسان بالعمل ، وربما كان معاملة الناس بالقول الحسن أحبَّ إليهم من إطعام الطعام والإحسان بالمال .

كما روي عن لقمان أنه قال لابنه : لأن تكن كلمتك طيبة ووجهك منبسطاً تكن أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة . وروي عن ابن عمر أنه كان ينشد .

بُنيَّ إنَّ البِرَّ شَيءٌ هَينٌ ... وَجْهٌ طَليقٌ ولِسَانٌ لَيِّنٌ

ومما يندب إليه إلانة القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٥/٢٩٧) الصلح : باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم وفي الجهاد، ومسلم (٧/٩٤، ٩٥) الزكاة : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) رواه البخاري (١٠/٤٤٨) الأدب : باب طيب الكلام ، ومسلم (٧/١٠١) الزكاة: باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.

(٣) رواه مسلم (١/٥٣) وأبو عوانة (١/٣٠) وأبو داود (٥١٩٣) وابن ماجه (٣٦٩٢) وأحمد (٢/٣٩١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح - إرواء الغليل (٣/٢٣٧) رقم ٧٧٧.

رأى بعض التابعين رجلاً واقفاً مع امرأة فقال لهما : (إن اللّه يراكما سترنا اللّه وإياكما) .

ودعي الحسن إلى دعوة فجيء بآنية فضة فيها حلواء ، فأخذ الحسن الحلواء فقلبها على رغيف وأكل منها . فقال بعض من حضر : هذا نهي في سكون .

وقال أبو الدرداء : من وعظ أخاه سراً فقد زانه ومن وعظه علانية فقد شانه . كذلك الرفق في مقابلة الأذى قال تعالى : ﴿ **وَيَدْرَءُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الْدَّار** ﴾ (الرعد : ٢٢) .

قال بعض السلف : (هو الرجل يسب الرجل فيقول إن كنت صادقاً فغفر اللّه لي وإن كنت كاذباً فغفر اللّه لك) .

قوله ﷺ في الدرجات «**والصلاة بالليل والناس نيام**» .

والصلاة في الليل من موجبات الدرجات العالية في الجنة . قال اللّه عز وجل في وصف المحسنين : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الْلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ (الذاريات : ١٨) .

وقال عز وجل : ﴿ **تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوفَاً وَطَمَعَاً وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون فَلَا تعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُن جَزَاءُ بِمَا كانُوا يَعْمَلُون** ﴾ (السجدة : ١٦) .

وقال ﷺ : «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة القيام بالليل**»[1] .

قال أبو الدرداء : صلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير .

وعن بلال وأبي أمامة رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال : «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وإن قيامَ الليل قربةٌ إلى اللّه ومنهاةٌ عن الإثم وتكفير للسيئات ومطردَةٌ للداء عن الجسد**»[2] .

---

(١) رواه مسلم (٨/٥٥) الصيام : باب فضل صوم المحرم، وأبو داود في الصوم، والترمذي في الصلاة والنسائي في قيام الليل.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٥٤٣ و٣٥٤٤ في الدعوات: باب رقم (١١٢) ورواه أيضاً أحمد والحاكم والبيهقي =

ونختم بهذه الدعوات التي دعا بها رسول اللّه ﷺ «**اللهم إنَّا نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لنا وترحمنا ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفنا غير مفتونين ، ونسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنا إلى حبك ، وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .**

= عن بلال والحاكم والبيهقي عن أبي أمامة وابن عساكر عن أبي الدرداء والطبراني عن سليمان وابن السني عن جابر - قال عبد القادر الأرناؤوط وهو حديث حسن - هامش (٤٣٣/٩) جامع الأصول.

طريق ولاية اللَّه عز وجل[1]

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وما قل وكفى خير مما كثر **وألهى**، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم معجزين .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) ولاية الله والطريق إليها ـ في شرح حديث الولي للإمام الشوكاني ـ للدكتور إبراهيم إبراهيم هلال ـ جامع العلوم والحكم شرح حديث الولي لابن رجب ـ فتح الباري شرح البخاري ـ .

«إن اللّه تبارك وتعالى قال : «مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُهُ كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1] .

قال الحافظ في الفتح : المراد بولي اللّه المواظب على طاعته المخلص في عبادته .

ومن أعظم ما يتبين به الولي أن يكون مجاب الدعوة ، راضياً عن اللّه عز وجل في كل حال ، قائماً بفرائض اللّه سبحانه ، تاركاً لمناهيه ، تاركاً لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها ، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر فيها ، ولا بتحصيل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض ، إذا وصل إليه القليل صبر ، وإذا وصل إليه الكثير شكر ، يستوي عنده المدح والذم ، والفقر والغنى ، والظهور والخمول ، غير معجب بما مَنَّ اللّه عليه من خصال الولاية ، إذا زاده اللّه رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً ، حسن الأخلاق ، كريم الصحبة ، عظيم الحلم ، كثير الاحتمال .

ومن كان فيه بعض هذه الخصال ، واشتمل على شطر من هذه الصفات ، فله من الولاية بقدر ما رزقه اللّه سبحانه منها ووهب له من محاسنها .

ومن وهبت له هذه الموهبات الجليلة ، وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة ، فغير بعيد ولا مستنكر أن تظهر على يده من الكرامات التي لا تنافي الشريعة ، والتصرفات في مخلوقات اللّه عز وجل الوسيعة ، لأنه إذا دعاه أجابه ، وإذا سأله أعطاه ، فالكرامة لا تنافي الشريعة المطهرة ، ولكن ينبغي أن

---

(١) رواه البخاري (٤/٢٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/٤) والبغوي في شرح السنة (١/١٤٢/ ٢) السلسلة الصحيحة رقم ١٦٤٠ .

يعلم أنه ليست كل خارقة من الخوارق كرامة رحمانية ، فالخارقة إما أن تأتي على يد فاسق أو مبتدع فهي عند ذلك خارقة شيطانية ، والدجال الذي هو من أكفر الخلق يأتي على يديه من الخوارق العظيمة فتنة للناس ، وإذا أتت الخارقة على يد متشرع ، معروف بالصلاح ، متبع للسنة ، فهي خارقة رحمانية ، وإن شئت قلت كرامة من اللَّه عز وجل ، لا نستكثرها على ولي من أولياء اللَّه عز وجل ، وكم للصحابة رضي اللَّه عنهم والتابعين لهم بإحسان من الكرامات التي يصعب حصرها .

فمن هذه الكرامات :

* أن خُبيباً رضي اللَّه عنه لما أَسَرَهُ المشركون كان يؤتى بقطف من العنب في غير وقته .

* ومنها : أن الصديق رضي اللَّه عنه كان يأكل هو وأضيافه من القصعة ، فلا يأكلون لقمة إلا رَبَا من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا وهي أكثر مما كانت قبل أن يأكلوا وقصعة الصديق ثابتة في الصحيح .

* ومنها : أن بعض الصحابيات ذهب بصرها من تعذيب المشركين . فقالوا : ما أصاب بصرها إلا اللاّتُ والعزى . فقالت كلا واللَّه فرد اللَّه عليها بصرها .

* ومنها : أن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أرسل جيشاً مع رجل يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب جعل يصيح على المنبر يا ساريةَ الجبلَ ، يا ساريةَ الجبلَ، فقدم رسول الجيش ، فسأله عمر فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح يقول يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمناهم .

* ومنها : أن أحد التابعين ألقي في النار فوجد قائماً يصلي ، وهو أبو مسلم الخولاني ، ولما قدم المدينة جعله عمر بينه وبين أبي بكر ، وقال الحمد للَّه الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم، ودعا على امرأة أفسدت عليه زوجته فعميت ، فتابت فدعا لها فرد اللَّه عليها بصرها .

* ومنها : أن صِلَةَ بن أشيم مات فرسه في الغزو فقال : اللهم لا تجعل

لمخلوق عليَّ منة ، ودعا اللّه فأحياه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بنيّ خذ السرج فإن الفرس عارية ، فأخذ السرج فمات الفرس .

والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة من الولاية ، ومن إجابة الدعوة حتى يصل معها إلى درجات عُلَى ، من الرضا باللّه عز وجل ومحبته . كان سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه مستجاب الدعوة ، وكان يدعو للناس لمعرفتهم له بذلك ، فذهب بصره في آخر عمره ، فقالوا له ألا دعوت لبصرك ؟ فقال : قضاء اللّه أحب إليَّ من بصري .

وكان سعيد بن جبير مستجاب الدعوة ، كان له ديك يوقظه للصلاة ، فما صاح الديك يوماً فقال ما له قطع اللّه صوته فما صاح الديك بعد ذلك ، فقالت له أمه لا تدعو على شيء بعدها أبداً .

هذا السعيد عَذَّبهُ الحجاج حتى قتله ، وكان يُمكنه أن يدعو على الحَجاج ولم يفعل ، إلا أنه دعا أن يكون آخر من يقتله الحجاج ، وكان كذلك ، ومات الحجاج بعدهُ بمدة يسيرة .

وينبغي أن يعلم أن أفضل الأولياء هم الأنبياء ، وأفضل الأنبياء هم المرسلون ، وأفضل المرسلين هم أولو العزم منهم ، محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ ، وأفضل أولي العزم من الرسـل رسولنـا ﷺ وأفضل الأوليـاء بعد الأنبياء الصحابة رضي اللّه عنهم ، وأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم باقي العشرة ، ثم البدريون ثم أهل الحديبية .

واعلموا عباد اللّه أن الأولياء غير الأنبياء ليسوا بمعصومين ، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد اللّه المؤمنين ، لكنهم قد صاروا في رتبة رفيعة ومنزلة عَلِيَّةٍ فَقَلَّ أن يقع منهم ما يخالف الصواب وينافي الحق .

والعبد مهما تدرج في صفات الولاية ، لا يستغني عن الكتاب والسنّة بحال ، ولا يأتي عليه وقت يقول كما قال بعض جهال الصوفية : حدثني قلبي عن ربي . فقد كان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه المشهود له بالولاية من رسول اللّه ﷺ يشاور أصحابه ويشاورونه ، ويراجعهم ويراجعونه ، ويرجعون جميعاً إلى الكتاب والسنّة .

قوله : **«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»** .

أولياء الله عزّ وجلّ تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم ، وأعداء الله عزّ وجلّ تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم . قال الله عزّ وجلّ : **﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالمَوَدَّةِ ﴾** (الممتحنة : ١) .

قال ابن هبيرة : يستفاد من هذا الحديث ، تقديم الإعذار على الإنذار .

قال الشوكاني : ووجهه أنه لما قدم معاداة من هو بهذه الصفة من الولاية ، فكأنه أعذر الله إلى كل سامع ، أن من هذا شأنه لا ينبغي أن يعادى ، بل على كل من عرف أن هذه صفته أن يواليه ويحبه ، فإذا لم يفعل فقد أعذر الله إليه ، ونبهه على أن من عاداه يستحق العقوبة البالغة على عداوته .

ومعنى (آذنته بالحرب) أي : أعلمته بأنني محارب له حيث أنه كان محارباً لي بمعاداته ولياً من أوليائي .

قال الطوفي : لما كان ولي الله سبحانه ممن تولى الله سبحانه بالطاعة والتقوى ، تولاه الله تعالى بالحفظ والنصرة .

قوله عز وجل في الحديث القدسي : **«وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه»** .

قال الطوفي : الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين ، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب ، فكانت الفرائض أكمل فلذا كانت أحب إلى الله وأشد تقرباً .

والله عز وجل لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله ، والورع عما حرم الله ، وحسن النية فيما عند الله عز وجل .

ومن أعظم فرائض الله عز وجل ترك المعاصي ، بل دخول فرائض الترك للمعاصي أولى من دخول فرائض الطاعات ، كما يدل عليه حديث **«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فلا تقربوه»**[1] .

---

(١) رواه مسلم (٩/١٠٠ - ١٠١) في الحج : باب فرض الحج مرة في العمر .

قـوله : «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» .

والنوافل هي ما عدا الفرائض من جميع أجناس الطاعات ، والمعنى أن العبد إذا أتى بالفرائض وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة اللّه عزّ وجلّ .

وقيل : إن العبد يفعل الفريضة مخافة العقاب ورجاء الأجر من اللّه عز وجل ، والتقرب إلى اللّه عز وجل ، أما النافلة فيفعلها بإخلاص نية التقرب والتحبب إلى اللّه عز وجل ، فكانت المداومة على النوافل بعد الفرائض ، هي السبب الموصل إلى محبة اللّه عز وجل .

وقوله : «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**» .

قال ابن حجر في الفتح : وقد استشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره إلى آخره ؟ والجواب من أوجه ، وذكر سبعة أوجه أقربها للصواب أن العبد بكليته يكون مشغولاً بربه عز وجل ، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضي اللّه عز وجل ولا يستعمل بصره إلا فيما أمره اللّه عز وجل به ، ولا يستعمل يده إلا في طاعته ولا يحرك قدمه إلا في مرضاته .

وقال الشوكاني : إن اللّه عز وجل يُمِدُّ جوارح العبد بنور فبهذا النور يسمع ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي ، واستدل على ذلك بأدلة منها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا خرج إلى الصلاة «**اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وخلفي نوراً وفي عصبي نوراً وفي لحمي نوراً وفي دمي نوراً وفي شعري نوراً وفي بشري نوراً**»[1] .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا : إنه توفيق اللّه عز وجل يحالف العبد ، فإذا سمع فبتوفيق اللّه ، وإذا أبصر فبتوفيق اللّه ، وإذا مد يده فبتوفيق اللّه ، أي

---

(١) رواه البخاري (١١٦/١١) الدعوات : باب الدعاء إذا انتبه بالليل ، ورواه مسلم (٤٥/٦) في صلاة المسافرين : باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل .

إن اللّه عز وجل يوفق عبده للصواب ويهديه للرشاد في كل قول وعمل ، وهو من قبيل «واللّهُ غَالِبٌ عَلَى أمْرِه» .

قوله عز وجل ﴿ وَلَئِن سألَنِي لأعْطِينه ﴾ أي إن هذا المحبوب المقرب تصير له عند اللّه منزلة عالية ، ودرجة سامية ، تقتضي أنه إذا سأل اللّه شيئاً أعطاه إياه .

روى الحاكم في مستدركه عن أنس عن النبي ﷺ قال : «**كم من ضعيف متضاعف ذي طمرين لو أقسم على اللّه لأبره منهم البراء بن مالك**»[1] .

وأن البراء لقي زحفاً من المشركين فقال له المسلمون أقسم على ربك فقال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم فمنحهم أكتافهم ، ثم التقوا مرة أخرى فقالوا : أقسم على ربك فقال أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، وألحقني بنبيك ﷺ فمنحوا أكتافهم وقتل البراء رضي اللّه عنه .

قوله : «**ولئن استعاذني لأعيذنه**» الاستعاذة : هي الالتجاء طلباً للحماية واللياذة : هي الالتجاء طلباً لمنفعة . كما يقول القائل :

يَـا مَـنْ ألُـوذُ بِـهِ فِيـمَـا أؤمِـلُهُ ... وَمَـنْ أعُـوذُ بِـهِ مِـمَّـا أحَـاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمَاً أنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُـونَ عَظْمَـاً أنْتَ جَابِـرهُ

أي أنه إذا احتمى بجناب اللّه عز وجل حماه اللّه .

قوله : «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» .

الموت هو مفارقة الروح للجسد ولا يحصل ذلك إلا بألم عظيم جداً وهو أعظم الآلام التي تصيب العبد في الدنيا .

وصلى اللّه وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) ورواه الترمذي والضياء عن أنس .

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩، ١٣٠)

قال شيخ الاسلام : رد هذا الكلام طائفة وقالوا إن الله لا يوصف بالتردد فإنما يتردد من لا يعلم عواقب الامور والله أعلم بالعواقب والتحقيق أن كلام رسول الله ﷺ حق وليس أحدٌ أعلم بالله ورسوله ولا أنصح للأمة ولا أحسن بياناً منه فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر من أضل الناس وأجهلهم وأسوئهم أدباً ، بل يجب تأديبه وتعزيره ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة والاعتقادات الكاذبة .

الترغيب في حج بيت اللّه الحرام وفضل عشر ذي الحجة[1]

إن الحمد للّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ - ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب اللّه تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عباد اللّه : إخوانكم في هذه الأيام قد عقدوا الإحرام ، وقصدوا البيت الحرام ، وملأوا الفضاء بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام .

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي - لطائف المعارف لابن رجب - التبصرة لابن الجوزي .

تلبية لنداء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج : ٢٧) .

ولقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

ولقوله عز وجل : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩) .

وقال ﷺ : **«بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»**[١] .

وقد ورد في فضيلة هذه العبادة أحاديث كثيرة منها ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : **«سئل رسول اللّه ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : «إيمان باللّه ورسوله»** . قيل : ثم ماذا ؟ قال : **«الجهاد في سبيل اللّه»** . قيل : ثم ماذا ؟ قال : **«حج مبرور»** وعنه ﷺ قال : **«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»**[٢] وعنه قال : **«العمرة إلى العمرة كفارة بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**[٣] وعن عائشة قالت : **«قلت يا رسول اللّه : نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال لكن أفضل الجهاد ، حج مبرور»**[٤] .

وبر الحج عباد اللّه يشتمل على أمور :

* منها : الإحسان إلى الناس بجميع وجوه الإحسان ، ففي صحيح مسلم أن

---

(١) رواه البخاري (١/٤٩) في الإيمان، ومسلم (١/١٧٧) في الإيمان.

(٢) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٥/٢٨١) رقم ٦٠٧٣.

(٣) رواه البخاري ومسلم والأربعة ومالك وأحمد ـ صحيح الجامع (٤/٦٣) رقم ٤٠١٥.

(٤) أخرجه البخاري (١/٤٦٥) والبيهقي (٤/٣٢٦) وأحمد (٦/٧٩) من طريق عبد الواحد بن زياد ثنا حبيب بن أبي عمرة بلفظ قلت : « يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ فقال لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور » قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ ».

النبي ﷺ سئل عن البر فقال : «**حسن الخلق**»[1] .

وكان ابن عمر ينشد :

بُنَيَّ إنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ

والإحسان إلى الناس في الحج بالقول والفعل يحتاج إليه كثيراً في السفر. وفي المسند عن جابر عن النبي ﷺ قال : «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة قالوا . وما بر الحج يا رسول اللّه قال إطعام الطعام وإفشاء السلام**»[2] .

وقالوا : البر هو فعل الطاعات كلها وضده الإثم .

قال اللّه تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ** ﴾ (البقرة : ١٧٧) .

وكلها يحتاج إليها الحاج ، فلا يصح الحج بدون الإيمان ، ولا يكون مبروراً بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأركان الإسلام مرتبط بعضها ببعض .

* ومن أعظم أنواع البر عباد اللّه كثرة ذكر اللّه تعالى فيه ، قال ﷺ : «**أفضلُ الحجِ العَجُّ والثَّجُّ**»[3] .

والعج هو رفع الصوت بالتلبية والذكر ، والثج إراقة دماء الهدايا والنسك

ومن أنواع البر في الحج كذلك عباد اللّه استحسان الهدي واستسمانها واستعظامها . قال اللّه عز وجل : ﴿ **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ** ﴾ (الحج : ٣٦) وقال : ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى**

---

(١) رواه مسلم (١١١/١٦) البر والصلة : باب تفسير البر والإثم .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط بلفظ « وطيب الكلام » بدلاً من إفشاء السلام وقال الهيثمي : وإسناده حسن - مجمع الزوائد (٢٠٧/٣) - وروى الجزء الأول من الحديث الطبراني عن ابن عباس وأحمد عن جابر . وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٦٥ .

(٣) رواه الدارمي (٣١/٢) والترمذي (٨٤/٣- تحفة) وابن ماجه (٢١٧/٢) .
وقال الألباني : وهذا الإسناد رجاله ثقات رجال مسلم إلا أنه منقطع ثم وجدت له شاهداً فالحديث به حسنه - بتصرف من الصحيحة رقم ١٥٠٠ .

ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) . وقد أهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة .

* ومن بر الحج كذلك عباد اللّه اجتناب أفعال الإثم كلها ، من الرفث والفسوق والمعاصي ، قال اللّه عز وجل : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة : ١٩٧) .

وقال ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1] .

* ومن بر الحج كذلك عباد اللّه أن يطيب العبد نفقته ، فإن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً .

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحْتٌ ... فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتِ الْعِيرُ
لَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا كُلَّ طَيِّبَةٍ ... مَا كُلُّ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مَبْرُورُ

* ومن بر الحج كذلك عباد اللّه أن لا يقصد العبد بحجه رياء ولا سمعة ، ولا مباهاة ولا فخراً ، ولا خيلاء ، ولا يقصد به إلا وجه ربه ورضوانه ، ويتواضع في حجه ، ويستكين ويخشع لربه .

قال رجل لابن عمر رضي اللّه عنهما : ما أكثر الحاج ! قال : ما أقلهم .

وقيل : الركب كثير والحاج قليل .

والحج فريضة العمر عباد اللّه ـ روى مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول اللّه ﷺ فقال : «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا . فقال رجل أكل عام يا رسول اللّه؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول اللّه ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ثم قال ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[2] .

والحج واجب عباد اللّه مع الاستطاعة لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) . وحد الاستطاعة أن يملك المسلم ما يوصله إلى البيت الحرام، مع نفقته ونفقة أهله حتى يرجع.

---

(١) رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٥/٢٨١) رقم ٦٠٧٣.

(٢) رواه مسلم (٩/١٠٠ ـ ١٠١) في الحج : باب فرض الحج مرة في العمر عن أبي هريرة وروى الشطر الأول أحمد وأبو داود وابن ماجة عن ابن عباس.

واختلف العلماء هل هذا الوجوب على سبيل الفور أو التراخي . فقال الشافعي وأصحابه إنه على التراخي ، وقال الإمام أحمد وجمهور أصحاب أبي حنيفة إنه على الفور . وللإمام مالك قولان مشهوران .

والراجح من حيث الدليل أنه على الفور ، أي إن العبد إذا ملكَ حد الاستطاعة ، ينبغي عليه أن يحج بيت اللّه الحرام .

والأدلة على ذلك من كتاب اللّه عز وجل قوله تعالى : ﴿ **وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٣٣) . وقوله عز وجل : ﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ** ﴾

ولا شك أن المسارعة والمسابقة كلتاهما على الفور .

كذلك حذرنا اللّه عز وجل من اقتراب الأجل ونحن لا نشعر . فقال عز وجل : ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَأَنْ عَسَى أن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** ﴾ (الأعراف : ١٨٥) .

ففي هذه الآية أنه يجب على الإنسان أن يبادر إلى امتثال الأمر خشية أن يعاجل العبد الموت وهو لا يدري .

وقد دلت السنة كذلك ، بمجموعة أحاديث تصل بمجموعتها إلى درجة الاحتجاج ، فمن ذلك ما رواه ابن عباس عن الفضل أو أحدهما عن الآخر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «**من أراد الحج فليتعجل ، فإنه قد يمرض ، وتضل الضالة ، وتعرض الحاجة**»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال :«**لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فتنظر كل من كانت له جِدةٌ ، ولم يحج فيضربوا عليه الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين**» .

وكما دلت أدلة الشرع على وجوب الحج على الفور ، دلت كذلك أدلة اللغة والعقل .

---

(١)أخرجه أحمد (٢١٤/١، ٣٢٣، ٣٥٥) وابن ماجة (٢٨٨٣)- والبيهقي وأبو نعيم (١١٤/١) والخطيب وقال الألباني : هذا إسناد ضعيف لكن لعله يتقوى بالطريقة الأولى - فيرتقي إلى درجة الحسن وقد صححه عبد الحق في الأحكام - إرواء الغليل رقم ٩٩٠ .

أما اللغة فإن أهل اللسان العربي ، مطبقون على أن السيد لو قال لعبده اسقني ماءً ، فلم يفعل فأدبه ، فليس للعبد أن يقول : هذا الأمر على التراخي .

وأما العقل فلو قلنا إن وجوب الحج على التراخي ، فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون ذلك التراخي له غاية معينة ينتهي إليها وإما لا .

والقول بأن له غاية ينتهي إليها ليس عليه دليل من كتاب ولا سنّة ولا إجماع ، وإن قلنا إن تراخيه إلى غير غاية ، فما جاز تركه إلى غير غاية ، دل على عدم وجوبه ، والمفروض وجوبه .

فإن قيل غايته الوقت الذي يغلب على الظن بقاؤه إليه . فالجواب أن البقاء إلى زمن متأخر ليس لأحد أن يظنه لأن الموت يأتي بغتة ، فكم من إنسان يظن أنه يبقى سنين طويلة ، ويخترمه الموت فجأة .

كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْ عَسَى أن يَكُونَ قَد اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ (الأعراف : ١٨٥) .

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمناً ، يترددون إليه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً ، لما أضاف الله تعالى ذلك البيت إلى نفسه ، ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله إبراهيم ﴿ وَطَهِرْ بَيْتِيَ لِلْطَائِفِينَ ﴾ (الحج : ٢٦) . تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم ، فكلما ذكر لهم ذلك البيت حنوا ، وكلما تذكروا بعدهم عنه أنوا .

يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق ، ولمن شاهد السائرين إلى دار الأحبة وهو قاعد أن يحزن .

أَلاَ قُلْ لِزوَارِ دَارِ الْحَبِيبِ ... هَنِيئَاً لَكُمْ فِي الْجِنَانِ الْخُلُودُ
أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ فَيْضَاً ... فَنَحْنُ عِطَاشٌ وَأَنتُم وُرُودُ

لئن ساروا وقعدنا ، وقربوا وبعدنا ، فما يؤمننا أن نكون ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين .

لِلّهِ دَرُ رَكَائِبٍ سَارَتْ بِهِمْ ... تَطْوِي القِفَارَ الشَاسِعَاتِ عَلىٰ الدُّجَى
رَحَلُوا إِلَى البيتِ الْحَرام وَقَدْ شَجَا ... قَلْبُ الْمُتَيَّمِ مِنْهُم مَا قَدْ شَجَا
نَزَلُوا بِبَابٍ لاَ يَخِيبُ نَزِيلُهُ ... وَقُلُوبهُم بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالْرجَا

على أن المتخلف لعذر ، شريك للسائر في الأجر ، كما قال النبي ﷺ للصحابة وهو راجع من غزوة تبوك «**إن بالمدينة أقواماً ، ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم خلفهم العذر**» .

يَا سَائِرِينَ إِلَى البيتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ ... سِرْتُمْ جُسُوماً وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا
إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُـذْرٍ وَقَدْ رَاحُـوا ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ كَمَن رَاحَـا

لما كان اللّه سبحانه وتعالى قد وضع في نفوس المؤمنين حنيناً إلى مشاهدة بيته الحرام ، وليس كل أحد قادراً على مشاهدته في كل عام ، فرض اللّه عز وجل على المستطيع الحج مرة واحدة في العمر ، وجعل موسم العشر مشتركاً بين السائرين والقاعدين ، فمن عجز عن الحج في عام قدر في العشر على عمل يعمله في بيته أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج . روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **ما من أيام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله من هـذه الأيام** » يعني أيـام العشر . « فقـالوا : يـا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال : **ولا الجهاد في سبيل الله إلاّ رَجُلاً خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يرجع مِن ذلك بشيء** »[1] .

وهذا الحديث يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفـاضل يلتحق بالفاضل في غيره ويزيد عليه .

فيستحب الإكثار من العبادات كلها في أيام العشر ، كذكر اللّه عز وجل ، والصـلاة ، والصيام ، والصـدقة ، والجمهـور على أن عشـر ذي الحجـة هي المقصودة بقول اللّه عز وجل : ﴿ **وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ (الفجر : ١) .

وكان السلف يعظمون ثلاثة أعشار ، عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان ، والعشر الأول من شهر اللّه المحرم .

ودل على استحباب كثرة الذكر في أيام العشر قوله عز وجل : ﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ** ﴾ (الحج : ٢٨) .

---

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن أنس ورواه مسلم وابن ماجة عن جابر ـ صحيح الجامع (١٨٩/٢).

فإن الأيام المعلومات هي أيام العشر عند جمهور العلماء ، ومن أيام العشر يوم عرفة ، وهو عيد أهل الموقف ، وفيه أكمل الله عز وجل للمسلمين دينهم ، فنزلت ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) .

وهو يوم مغفرة الذنوب ، والتجاوز عنها ، والعتق من النار ، والمباهاة بأهل الموقف ، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي الملائكة ، فيقول ما أراد هؤلاء**»[1] .

ويستحب صيام يوم عرفة لأهل الأمصار ، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال : «**صيام يوم عرفة أحتسب على الله ، أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده**»[2] .

ويستحب لأهل الموقف الإفطار لأنهم ضيوف الرحمن والكريم لا يُجَوِّعُ أضيافه .

اللهم وفق إخواننا زوار بيتك الحرام لحج مبرور .
اللهم ارزقنا في عامنا المقبل حجاً مبروراً
اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

---

(١) مسلم (١١٦/٩ ـ ١١٧) الحج : فضل يوم عرفة .
(٢) مسلم (٥٠/٨) الصيام : استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عرفة ويوم عاشوراء .

خطبة عيد الأضحى[1]

إن الحمد للَّه ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلَه إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد ، ، ،

عباد اللَّه قد أظلنا أشرف أيام العام عند اللَّه عز وجل ، ألا وهو يوم الأضحية ، يوم العَجِّ والثَجِّ ، يوم النحر ، يوم يصبح فيه الحجيج مغفوراً لهم ، يوم الحج الأكبر .

اللَّه أكبرُ ، اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر
اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر

اللَّه أكبر ما حَجَّ المسلمون بيت اللَّه الحرام ، تلبية لنداء إبراهيم ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً** ﴾ (الحج : ٢٧) .

يقولون لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنِّعمة لك والملك ، لا شريك لك .

اللَّه أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم المطهر .

اللَّه أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات .

اللَّه أكبر ما ابتهلوا فيه إلى اللَّه وغفرت لهم جميع السيئات .

---

(١) هداية المرشدين لعلي محفوظ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني ـ غالية المواعظ للألوسي .

الله أكبر ما وقفوا بالمشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السعادات .

الله أكبر ما وصلوا إلى منى ونحروا هَدَايَاهُمْ وحلق كلٌ أو قصَّر .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر

لما نزل قول الله عز وجل : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

خرج النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة ، وخرج معه خلق كثيرون ، فكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر ، وقال ﷺ : **«خُذُوا عَنِّي مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**[١] .

فلما كانوا بعرفة خطبهم رسول الله ﷺ خطبة جامعة ، أرسى فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الجاهلية ، وعَظَّمَ فيها حرمات المسلمين ، فقال ﷺ : **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، وربا الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النِّساء ، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكسها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد»**[٢] .

فقوله ﷺ : «إن دماءكَم وأموالَكم حَرامٌ عليكم كحرمةِ يومكم هذا في

---

(١) رواه مسلم (٤/٧٩) وأبو نعيم في المستخرج (٢١/١٦٦/٢) وأبو داود (١٩٧٠) والنسائي (٢/٥٠) والترمذي (١/١٦٨) مختصراً وابن ماجه (٣٢٠٣) وأحمد (٣/٣٠١) - إرواء الغليل رقم ١٠٧٤ .

(٢) رواه مسلم (٩/١٨٢، ١٨٣، ١٨٤) الحج : باب حجة النبي ﷺ ، وأبو داود (٥/٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧) المناسك : باب صفة حجة النبي ﷺ ورواه ابن ماجه (٢/١٠٢٥) المناسك : باب حجة رسول الله ﷺ .

شهركم هذا في بلدكم هذا» تعظيم لحرمة المسلم وكان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول: (إنَّ الله حَرمكِ وَعَظّمكَ وشَرَّفَكِ والمؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك».

وروى مسلم عنه ﷺ قال: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**»[1].

ثم قال ﷺ: «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**» أعز الله بهذا النبي الدين وأهله وأذل به الكفر وأهله.

وجعل به كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وأول شيء هدمه رسول الله ﷺ شرك الجاهلية، فأتاهم ﷺ بلا إله إلا الله، شعار الإسلام وَعَلَمُ التوحيد، كلمة تخلع بها جميع الآلهة الباطلة، وتثبت بها استحقاق الله عز وجل وحده للعبادة، فهو الخالق عز وجل وما سواه مخلوق، وهو القاهر عز وجل وما سواه مقهور، قال الله عز وجل: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (الروم: ٤٠).

واعلموا عباد الله أن الأموات قد أفضوا إلى ما قدموا لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ (فاطر: ١٤).

فلا تدعوا غير الله، ولا تذبحوا لغير الله، ولا تنذروا لغير الله، ولا تستغيثوا بغير الله، ولا تحلفوا بغير الله، ولا تحلفوا بالله إلا صادقين.

ومما هدمه رسول الله ﷺ ووضعه تحت قدمه حكم الجاهلية قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ المائدة: ٥٠)

والتحاكم إلى شرع الله عزّ وجلّ من صلب العقيدة، من صلب التوحيد، من صلب لا إلَهَ إلاّ الله قال عزّ وجلّ: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ﴾ يوسف: ٤٠).

---

(١) رواه البخاري في النكاح، وفي الأدب: باب الغيبة، والترمذي (١١٥/٨) البر والصلة: باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم.

ثم قال ﷺ : «ودماء الجاهلية موضوعة» أهدر النبي ﷺ دماء الجاهلية ، وقال ﷺ : «وأول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث» ثم قال ﷺ : «وربا الجاهلية موضوعة وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» فأبطل النبي ﷺ ربا الجاهلية وقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩).

وقال عز وجل : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة : ٢٧٦) .

فاحذروا عباد الله من التعامل مع الهيئات الربوية والبنوك الربوية ومن العمل فيها .

ثم وصى النبي ﷺ بالنساء فقال ﷺ : «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» ومن تقوى الله في النساء أن نعلمهن دين الله عز وجل ، وأن نلزمهن بالحجاب الشرعي قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (الأحزاب : ٥٩) .

وقال ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1] .

ثم استشهد ﷺ أمته أنه قد بلغ رسالة ربه فقال ﷺ : «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت» ونحن نشهد بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق جهاده ، فجزاك الله عنا خير ما جزي نبيٌّ عن أمته .

ومن شرف يوم النحر عباد الله أن الله عز وجل ابتلى فيه الخليل إبراهيم بذبح ولده ، قال الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي

(١) أخرجه مسلم (١٥٥/٨) والبيهقي (٢٣٤/٢) وأحمد (٣٥٥/٢، ٣٥٦، ٤٤٠) عن سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً وله شاهد - الصحيحة (٣١٧/٣) رقم ١٣٢٦ .

المَنَام أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا ترىَ ؟ قَال : يَا أَبَت افْعَلْ مَا تُؤْمَر سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرين فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ للجَبِين وَنادَيْنَاهُ أنْ يَا إبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيَا إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنين إنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِين وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظيم ﴾ (الصافات : ١٠٢ إلى ١٠٧) .

بلاءٌ مبينٌ عباد اللّه ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي أسكن ولده الرضيع وأمه بواد غير ذي زرع ، لا حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع ، امتثالاً لأمر اللّه عز وجل ، ثم توجه إلى بيت اللّه فقال : ﴿ رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَة ﴾ (إبراهيم : ٣٧) .

بلاءٌ مبينٌ عباد اللّه ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي مدحه عز وجل بقوله : ﴿ وَإبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (النجم : ٣٧) .

بلاءٌ مبينٌ عباد اللّه ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي قال اللّه عز وجل فيه : ﴿ وَإذ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُن قال إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامَا قَالَ وَمِن ذُرِيَّتِي ؟ قَالَ : لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمين ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

بلاءٌ مبينٌ عباد اللّه ، أبٌ قد رزق ولداً على كِبَر ، هو بكره ووحيده ، ولما صار الولد يسعى مع أبيه ، يرى الأب في المنام أنه يؤمر بذبح ولده ، ورؤيا الأنبياء وحي ، واستجاب الأب لأمر اللّه وآثر رضاه على هوى نفسه ، وأخبر الولد تطييباً لخاطره ، وحتى لا يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ، فما كان جواب الولد عباد اللّه ؟ ما قال : ما ذنبي ؟ ما قال : وهل تطاوعك نفسك أن تقتلني ؟ فيحرك في أبيه عاطفة الأبوة ، بل قال الولد الحليم : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَر سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّه مِنَ الصَّابِرِين ﴾ جـواب سديد عباد اللّه من الغلام الحليم .

الوالد هو إبراهيم الخليل والولد إسماعيل عليه السلام جد نبينا ﷺ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجِبِينِ ﴾ استسلم الابن للقتل وَهَمَّ الوالد أن ينفذ أمر اللّه عز وجل ووجه الغلام إلى الأرض ، حتى لا يرى وجهه وهو يذبحه ، اللّه عز وجل لا يستفيد منا شيئاً ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلكِن ينَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ (الحج : ٣٧) .

مـا الحكمة التي أرادهـا اللّه عزّ وجـلّ من ذبح أب لابنـه، إنه الاختبـار والابتلاء.

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أن يَا إبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كَذَلِكَ نجزِي الْمُحْسِنِين إنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِين وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيم ﴾ (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٧) .

عباد اللّه تدبروا القرآن المجيد ، فقد دلكم على الأمر الرشيد ، وأحضروا قلوبكم عند سماع الوعد والوعيد ، ولازموا طاعة ربكم ولا سيما أيام العيد ، فهذا شأن العبيد ، واحذروا غضبه فكم قصم من جبار عنيد . ﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إنَّهُ هَوَ يُبْدىء وَيُعِيدُ ، وَهُو الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج : ١٢ : ١٦) .

أين من بنى وَشَادَ وَطوَّل ، وتأمر على الناس وسَاد في الأول ، وظن جهلاً منه أنه لا يتحول ، هيهات عاد الزمان عليه سالباً ما خَوَّل ، فَسُقُوا كأساً من الموت على إهلاكهم عَوَّل ﴿ أفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأوَّل بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خلْقٍ جَدِيد ﴾ (ق : ١٥) .

فيا من أنذره يومه وأمسه ، وحادثه بالعبر قمره وشمسه ، واستلب منه ولده وأخوه وعُرسه ، وهو يسعى إلى الخطأ مشمراً وقد دنا حبسه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوسوِسُ بِهِ نَفْسُه وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ (ق : ١٦) .

أما علمت أنك مسؤول الزمان ، مشهود عليك يوم تنطق الأركان ، معلوم ما قدمت في زمان الإمكان ، محاسب على خطوات القدم وكلمات اللسان ، ﴿ إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيان عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الْشّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (ق : ١٧) .

يا من يرى العبر بعينيه، ويسمع المواعظَ بأذنيه ، والنذيرُ قد وصل إليه ، وكلماتُهُ تلقى عليه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق : ١٨) .

كأنك بالموت قد اختطفك اختطاف البرق ، ولم تقدر على دفعه عنك بِملكِ الغرب والشرق ، وندمت على تفريطك بعد اتساع الخرق ، وتأسفت على ترك الأولى والأخرى أحق ، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيد ﴾ (ق : ١٩) .

ثم تَرَحَّلْتَ من القصور إلى القبور ، على رحائل العِيدان والظهور ، وبقيت وحيداً على مر العصور ، كالأسير المأسور ، ﴿ **وَنُفِخَ فِي الْصُّورِ ذَٰلِكَ يَوم الْوَعِيد** ﴾ (ق : ٢٠) .

عباد اللّه : بادروا إلى ذبح الأضاحي بعد صلاة العيد ، فالأضحية عَلَمٌ على المِلَّةِ الإبراهيمية ، والشريعة المحمدية قال اللّه عز وجل : ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ (الكوثر : ٢).

واعلموا عباد اللّه أن رسول اللّه ﷺ لم يكن يدع الأضحية ، وكان يضحي بكبشين أملحين وكان ينحرهما بعد صلاة العيد ، وأخبر أن من ذبح قبل الصلاة فليس من النُّسُكِ في شيء ، وإنما هو لحم قَدَّمَه لأهله .

وكان من هديه ﷺ اختيار الأضحية ، واستحسانها ، وسلامتها من العيوب ، ولا يُضَحَّى بالعمياء والعوراء ، والعرجاء ، والعجفاء ، ومقطوعةِ الأذن ، ومكسورة القرن ، ومقطوعة الذَّنَبِ ، ويجوز من الضأن ما استكمل سنة ، ومن غيره سنتان .

ويستحب للمضحِي أن يذبح بيده ، إن كان يحسن الذبح ، ويستحب له أن يأكل من أضحيته ، ويتصدق منها على الفقراء ويهدي منها لجيرانه وإخوانه .

وفقنا اللّه وإياكم لِمراضِيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيراً من مَاضيه .

وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

صفات عباد الرحمن[1]

الحمد للّهِ ذي العِزِّ المجيد ، والبطش الشديد ، المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، المنتقم ممن عصاه بالنار بعد الإنذار بها والوعيد ، المكرم لمن خافه واتقاه بدار لهم فيها من كان خير مزيد ، فسبحان من قسم خلقه قسمين ، وجعلهم فريقين ﴿ فَمِنْهُم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾ (فصلت : ٤٦) .

أحمده وهو أهل للحمد والثناء والتمجيد ، وأشكره ونعمه بالشكر تدوم وتزيد ، وأشهد أن لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له ، ولا كُفْوَ ولا عَدْلَ ولا ضد ولا نديد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الداعي إلى التوحيد ، الساعي بالنصح للقريب والبعيد ، المحذر للعصاةِ بنار تلظى بدوام الوقيد ، المبشر للمؤمنين بدار لا ينفذ نعيمها ولا يبيد ، صلى اللّه عليه وآله وأصحابه صلاة لا تزال على كر الجديدين في تجديد ، وسلم تسليماً .

أما بعد ، ، ،

قوله عز وجل في وصف عباد الرحمن :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنَاً ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامَاً ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرَّاً وَمُقَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامَاً ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلَا بِالحَقِ وَلَا يَزْنُونَ

(١) التخويف من النار لابن رجب ـ تفسير ابن كثير ـ محاسن التأويل للقاسمي .

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلقَ أَثَامَاً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ، إلاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحَاً فأولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيمَاً ، وَمَن تَابَ وعَمِلَ صَالِحَاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابَاً ، وَالَّذِين لاَ يَشْهَدُونَ الـزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَغوِ مَرُّوا كِرَامَاً ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ربَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتقِينَ إمَامَاً ، أولَئِكَ يُجْزَونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تحِيَّةً وسَلاَمَاً ، خالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَامَاً ، قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤكم فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوفَ يَكُونُ لِزَامَاً ﴾ (الفرقان : ٦٣ ، ٧٧) .

في هذه الآيات الكريمات من خواتيم سورة الفرقان ، يصف اللّه عز وجل عباده الذين شرفهم بنسبتهم إليه ، فأول أوصافهم أنهم «يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنَاً» أي بسكينة ووقار وبغير جبرية ولا استكبار ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تَضَعُّفاً ورياءً ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى فكأنما ينحط من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره السلف رضي اللّه عنهم المشي بتضعيف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال : ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة .

قال الحسن البصري : إن المؤمنين قوم ذلت واللّه منهم الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم واللّه الأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن ، أما واللّه ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعزَّ بعزاء اللّه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير للّه نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُم الْجَاهِلونَ قَالُوا سَلاَمَاً ﴾ أي إذا سَفِه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان سيدهم ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً .

وبعد أن وصف اللّه عز وجل نهارهم ، أخبرنا أن ليلهم خير ليل ، فقال

عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (السجدة : ١٦) . وأشار عز وجل بقوله : ﴿ لِرَبِّهِم ﴾ إلى إخلاصهم فيها ابتغاء وجهه الكريم .

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَقْبَلَ كَابَدُوه ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ

أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

ومع اجتهاد عباد الرحمن في طاعة الله عز وجل ، ومواظبتهم ليل نهار على طاعته ، فهم كذلك وجلون مشفقون من عذاب الله عزّ وجلّ ، خائفون من عقابه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٥) .

قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام الملازم ما دامت السماوات والأرض .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾ أي بئس المنزل منظراً وبئس المقيل مقاماً .

ثم وصف الله عز وجل عباده في النفقة والاقتصاد ، فقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٧) .

أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (الإسراء : ٢٩) .

وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سَرَف .

وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله .

ثم بين الله عز وجل أن عباد الرحمن ليسوا معصومين من الذنوب ، ولكنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإن تلبس أحد المسلمين بشيء من

أنجاس هذه الكبائر ثم تاب وأناب وحسنت توبته ، فإنه يدخل كذلك في عباد الرحمن فقال : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخر وَلاَ يَقْتُلُون النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَ بَالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخلد فِيهِ مُهَاناً إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صٰلحاً فَأولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيمَـاً ، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّه مَتَاباً ﴾ (الفرقان : ٦٨ : ٧١) .

حـدث الإمام أحمـد عن ابن مسعود قـال: سئل رسـول اللّه ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل للّه نداً وهو خلقك قال ثم أي ؟ قال أن تفتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك[1] .

قال عبد اللّه وأنزل اللّه تصديق ذلك ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخرَ ﴾ الآية قوله : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أي يجد في الآخرة جزاء إثمه وقال عكرمة : أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وقوله : ﴿ يُضَاعَف لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ أي ذليلاً محتقراً فيجمع له بين عذاب الجسد ، والعذاب المعنوي . قوله : ﴿ إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحَاً ﴾ أي تاب من جميع ذلك واستمر في الدنيا على طاعة اللّه عز وجل . قال الحافظ ابن كثير : وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وآية النساء ﴿ (وَمَن يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّدَاً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِدَاً مُخلَّداً فِيْهَا أَبَدَاً ﴾ (النساء : ٩٣) .

فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول اللّه ﷺ بصحة توبة القاتل ، ثم قال عز وجل : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ .

وفي هذه الآية قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات .
قال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله اللّه بها خيراً . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم اللّه بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ،

---

(١) رواه البخاري (١٦٣/٨) التفسير باب قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ ورواه في الأدب والتوحيد، ورواه مسلم (٢ / ٨٠) الإيمان: باب الشرك أعظم الذنوب ورواه الترمذي والنسائي وأبو داود.

وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . والقول الثاني : أن تلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح حسنات ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إني لأعرف آخر أهل الجنة خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحُّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال فيقال له عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا كذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً . فيقال : فإنَّ لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا ؟ قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه**»[1] .

ثم قال عز وجل في وصف عباد الرحمن : ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** ﴾ والزور هو الكذب والفسق واللغو والباطل ، وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . ويروى عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّوُرَ** ﴾ قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور الغناء .

وقوله عز وجل : ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** ﴾ أي إذا اتفق مرورهم بأهل اللغو ، وهو كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح ، مروا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُم سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِين** ﴾ (القصص : ٥٥) .

ومن صفاتهم كذلك عباد الله أنهم إذا وعظوا بآيات الله وَخُوِّفُوا بها ﴿ **لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً** ﴾ بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية كما قال الله عز وجل في وصفهم : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيت عَلَيْهِم آيَاتُه زَادتْهُم إِيمَاناً** ﴾ (الأنفال : ٢) .

---

(١) رواه مسلم (٤٧/٣) الإيمان : باب آخر أهل النار خروجاً ، والترمذي (٦٢/٧) صفة جهنم .

ولذا قال قتادة فيهم : هم قوم عقلوا عن اللّه وانتفعوا بما سمعوا من كتابه ، ومن صفات عباد الرحمن كذلك عباد اللّه حرصهم على صلاح زوجاتهم وذرياتهم ، فهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجعَلْنَا لِلمُتَّقِينَ إمَاماً ﴾ قال الحسن البصري : أن يُريَ اللّهُ العبدَ المسلمَ من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة اللّه . لا واللّه لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً صالحاً ، أو ولد ولد ، أو أخاً ، أو حميماً مطيعاً للّه عز وجل .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر بنا رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول اللّه ﷺ ، لوددنا أننا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً ، ثم أقبل إليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غَيَّبَهُ اللّه عنه ، لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، واللّه لقد حضر رسول اللّه ﷺ أقوام ، أكبهم اللّه على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون اللّه إذا أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ، لقد بعث رسول اللّه ﷺ على أشر حال بعث عليها نبياً من الأنبياء ، في فترة جاهلية ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، وإن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح اللّه قفل قَلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنها التي قال اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُون رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلمُتَّقِينَ إمَاماً ﴾[1] (الفرقان : ٧٤) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَاماً ﴾ قال ابن عباس والحسن : أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهما : هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هُداهم متعدياً

---

(١) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

إلى غيرهم ، فذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً . وقال بعض السلف : بأن في الآية دليل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها .

ثم قال عز وجل بعد وصف عباده وأحبابه : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي المتصفون بما ذكر ، وهو خبر لقوله عز وجل : ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَن ﴾ ﴿ يُجْزَونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَروا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَت مُسْتَقراً وَمُقَاماً ﴾ والغرفة هي الدرجة العالية في الجنة ، أي يجزون بها على صبرهم على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على الطاعات واجتناب المحظورات ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ، ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ (الكهف : ١٠٨) . وقوله : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ (الفرقان : ٧٦) أي حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً .

ثم قال عز وجل بعد أن ذكر أوصاف عباده المتقين ومآلهم ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأ بِكُمْ رَبِّي ﴾ (الفرقان : ٧٧) أي لا يبالي بكم ولا يبقيكم ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ قال ابن عباس : لولا إيمانكم ، وقيل : لولا عبادتكم ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُم ﴾ أي بما جاءكم من الحق ، إشارة إلى المشركين ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي سوف يكون هذا النبأ والذكر الحكيم أو الأمر الجليل أمر الرسالة لازماً وثابتاً ، وقيل : ﴿ لِزَاماً ﴾ أي سوف يكون تكذيبهم مفضياً لعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ولقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعزَّ جنده وهزم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده .

ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباده الصالحين

تحريم الظلم وامتنان اللّه عز وجل على عباده بنعمه[1]

إنّ الحمد للّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلٓه إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحِ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب اللّه تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عن أبي ذر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي**

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ـ والإتحافات السنية في شرح الاحاديث القدسية .

كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني اطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما نقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد اللَّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1] .

كان السلف رضي اللَّه عنهم يعظمون شأن هذا الحديث ، كان أبو إدريس الخولاني إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جثى على ركبتيه .

اللَّه عز وجل ذو الكرم الفياض يَمُنُّ على عباده بنعمه ، وله الحمد والمنةُ على كل نعمة ، فقوله عز وجل : ﴿ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمت الظُلم عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرماً ﴾ والظلم هو وضع الأشياء في غير موضعها ، ولذلك كان الشرك باللَّه عز وجل هو أعظم الظلم ، لأنه وضع المخلوق العاجز المقهور في منزلة الإلّه القاهر ، واللَّه عز وجل قد حرم الظلم على نفسه فضلاً منه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (النساء : ٤٠) . وقال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيد ﴾ (فصلت : ٦) . وقال عز وجل : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمَاً لِلعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران : ١٠٨) . وحرم اللَّه عز وجل الظلم بين العباد ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره ، وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «إن الظلم ظلمات يوم القيامة» وفيهما عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال :

---

(١) رواه مسلم (١٣٢/١٦، ١٣٣) البر والصلة: تحريم الظلم، ورواه الترمذي (٣٠٤/٩، ٣٠٥) أبواب صفة القيامة وقال الترمذي: هذا حديث حسن واللفظ لمسلم.

«إنَ اللّه لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ» - ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود : ١٠٢) .

فالظلم حرام في ذاته حتى ظلم الكافر كما قال اللّه عز وجل : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَن لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ﴾ (المائدة : ٨) .

ومن عظم الظلم عند اللّه عز وجل ، حرم اللّه عز وجل ذكر عيوب الناس وذنوبهم ، وأباح للمظلوم أن ينشر مظلمته حتى إذا نزل بالظالم عذاب اللّه عز وجل ، علم الناس أن ذلك من شؤم الظلم ، فقال عز وجل : ﴿ لَا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمِ ﴾ (النساء : ١٤٨) .

ومن عظم الظلم كذلك جعل اللّه عز وجل دعوة المظلوم مستجابة ، ولو كان كافراً ، فقال ﷺ : «**ثلاثةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يَفْطِر» وفي رواية حتى يفطر - ودعوة المظلوم - يرفعها اللّه فوق الغَمَام، ويقول : « وعزتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين**»[1] .

أرسل الأمير نوح إلى أهل سمرقند كتاباً يأمر فيه بأخذ الخراج منهم ، فجمع أميرها الفقهاء وقرأ عليهم رسالة الأمير ، فقال له أبو منصور الفقيه قد بلغت رسالة الأمير فأردد عليه الجواب زدنا ظلماً حتى نزيد في دعاء السحر ، فلم تمض أيام حتى وجدوه مقتولاً ، وفي بطنه زج رمح مكتوب عليه .

بَغَى وَالْبَغْيُ سِهَامٌ تَنْتَظِر … رَمَتْهُ بِأَيْدِي الْمَنَايَا وَالْقَدَر

سِهَامُ أَيْدِي الْقَانِتَاتِ فِي السَّحَر … يَرْمِينَ عَنْ قَوْسٍ لَهُ اللَّيْلُ وَتَر

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال : «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**»[2] .

ثم قال : «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**» .

---

(١) رواه الترمذي (٥/١٠) أبواب صفة الجنة وقال: هذا الحديث ليس إسناده بذاك القوي وليس هو عندي بمعتل ، ورواه أحمد (٣٠٥ - ٤٤٥)، وابن ماجه في الصيام. وقال عبد القادر الأرناؤوط : هو حسن بشواهده (١٣/١١) جامع الأصول.

(٢) رواه البخاري (١٠١/٥) المظالم: باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته =

فالعباد كلهم مفتقرون إلى اللّه عز وجل ، والهداية نوعان : هداية بمعنى تبيين الهدى من الضلال ، وهذه الهداية يقدر عليها الرسل وأتباعهم ، كما قال اللّه عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

وقال عز وجل : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ١٠) أي أوضحنا له الطريقين طريق الهدى ، وطريق الضلال . والنوع الثاني من الهداية : الهداية بمعنى شرح الصدر للإسلام ، وهذا النوع لا يقدر عليه أحد إلا اللّه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (القصص : ٥٦) .

ثم قال عز وجل : **«يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»** .

واللّه عز وجل قادر على أن يهديَ العباد بغير سؤال منهم ، وأن يطعمهم بغير سؤال منهم ، وأن يكسيهم بغير سؤال منهم ولكنه عز وجل يحب من العباد أن يسألوه عزّ وجلّ ، وأن ينزلوا حوائجهم به عز وجل ، وأن يعترفوا بأنهم كلهم في ضلال ، حتى يهديهم اللّه عز وجل ، كلهم جائعون حتى يطعمهم اللّه عز وجل ، كلهم عراة حتى يكسيهم اللّه عز وجل ، كلهم هلكى بذنوبهم حتى يغفر اللّه عز وجل لهم ، لذا أحب اللّه عز وجل سؤال العباد له عز وجل ، وتضرعهم إليه عز وجل بل يبتلي اللّه عز وجل الناس بالبلايا والرزايا حتى يتضرعوا إليه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٢) .

وعاتب اللّه عز وجل العباد بقوله : **« إِنَّكُم تَخْطِئُون بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار وَأَنَا أَغْفِر الذُّنُوب جَمِيعَاً»** فبدأ بالليل ، واللّه عز وجل جعل في الليل فرصة للتوبة والإنابة والاستغفار ، فملأ الناس الليل قبل النهار بالمعاصي .

ثم قال عز وجل : **« يَا عِبَادِي إِنَّكُم لَن تَبْلُغُوا ضَرِي فَتَضرُونِي ، وَلَن**

= والترمذي (٩/٢٥٤) صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص بلفظ : « رحم الله عبداً كان لأخيه عنده مظلمة » الحديث.

تَبْلغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني ﴾ فشأن اللَّه عز وجل أعلى وأغلى من أن يتضرر بمعاصي العباد ، أو أن ينتفع بطاعاتهم ، بل العباد أنفسهم هم الذين ينتفعون بطاعاتهم ، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم ، واللَّه غني حميد .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ﴾ (آل عمران : ١٧٦) ،

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

وقال عز وجل حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم : ٨) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُم الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِي بِخلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيز﴾ (فاطر: ١٥، ١٦).

فاللَّه عز وجل يحب من العباد أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ، ويحب منهم أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره عز وجل ، مع أنه عز وجل غني عنهم وعن طاعتهم ، ثم بين اللَّه عز وجل ذلك بقوله : ﴿ يَا عِبَادِي لَو أَنّ أَولَكُم وآخِرَكُم وَإِنْسَكُم وجِنَّكُم كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْب رَجُل وَاحِد مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئَاً، يَا عِبَادِي لَو أَنّ أَوَلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْب رجل وَاحِد مِنْكُم مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً﴾ يمن اللَّه عز وجلّ بكمال ملكه، فملكه عزّ وجلّ لا يزيدُ بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على قلب اتقى رجل منهم ، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فَإِنَّهُ سبحانه الغني بذاته عمن سواه ، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوَلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيد وَاحِد فَسَألُونِي فَأَعْطَيت كُل وَاحِد مَسْأَلَته مَا نَقص ذَلِك مِمَا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقص المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِل البَحْر ﴾ يَمُنُّ اللَّه عز وجل بتمام قدرته ، وكمال أسمائه وصفاته ، وكمال غناه ، فلو أن الأولين والآخرين الإنس والجن اجتمعوا في مكان واحد ، وقاموا واجتهدوا في إنزال الحوائج والرغائب باللَّه عز وجل ، فمن كمال قدرته وكمال سمعه وبصره أنه يسمع الجميع في وقت

واحد ، على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم وحوائجهم ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ومن كمال قدرته عز وجل يحقق مطالب الجميع في وقت واحد ، لا يشغله إجابة داعٍ عن داعٍ آخر ، ومن كمال غناه عز وجل لا ينقص مع ذلك ما عند الله عز وجل إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، فيا بؤساً للقانطين من رحمته، ويا بؤساً للزاهدين في عطائه ، والمخيطُ إذا أدخل البحر لا ينقص منه شيئاً ، كذلك ما عند الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاق ﴾ (النحل : ٩٦) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **«يَدُ اللَّهِ مَلأى لاَ تُغِيضُها نفقة - أي لا تنقصها نفقة - سَحَّاءُ الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يَغِضْ - أي لم ينقص - ما في يمينه»** .

ثم قال عز وجل : ﴿ **يَا عِبَادِي إِنَّما هِي أعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُم ، ثُمَ أوفِيكُم إِيَّاهَا ، فَمَن وَجَد خَيْراً فَلْيَحمد اللَّه ، وَمَن وَجَد غَيْر ذَلِك فَلا يَلُومن إلاَّ نَفْسه** ﴾ يمن الله عز وجل وله الحمد والمنة على كل نعمة على عباده بكمال عدله فيقول : ﴿ **إِنَمَا هِي أعْمَالكُم أحْصِيهَا لَكُم** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُم اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِئهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسوه** ﴾ (المجادلة : ٦) . وقال عز وجل : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفس مَا عَمِلَتْ مَنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَت مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً** ﴾ (آل عمران : ٣٠) .

وقال عز وجل : ﴿ **وَوُضِعَ الكِتابُ فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ (الكهف : ٤٩) .

فالله عز وجل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، فيحصي الله عز وجل على العباد أعمالهم ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها ، وتوفية الأعمال يوم القيامة ، فإن المؤمن قد ينال ببركة طاعته في الدنيا ، وينال الكافر بشؤم معصيته كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعةً في الرزق ، ومودةً في قلوب الخلق ، وإن

للسيئة ظلمة في الوجه ، وسواداً في القلب ، وضيقاً في الرزق ، وبُغْضَةً في قلوب الخلق . (أما توفية الأعمال) فيوم القيامة ينال المحسن جزاء إحسانه كاملاً ، والمسيء جزاء إساءته أو يعفو اللّه عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) .

ثم قال اللّه عز وجل : ﴿ فَمَن وَجَد خَيْراً فَلْيَحْمد اللّه وَمَنْ وَجَد غَيْر ذَلِكَ فَلاَ يَلُومن إلاَّ نَفْسه ﴾ فلو وجد العبد في نفسه طاعة اللّه عز وجل فليحمد اللّه عز وجل ، فما أطيع إلا بفضله ورحمته ، وما عصي إلا بعدله وحكمته ، كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، فلا يستطيع أحد أن يطيع اللّه عز وجل إلا بمعونة اللّه عز وجل وتوفيقه ، وإذا لم يكن من اللّه عون للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده .

كان السلف رضي اللّه عنهم يجتهدون في الطاعات ، ويخافون من المعاصي حتى لا يلوموا أنفسهم يومَ القيامة .

كان عامر بن عبد قيس يقول : (واللّه لأجتهدن ، ثم واللّه لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة اللّه ، وإلا لم أَلُمْ نفسي) .

وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفوان بن سليم : (الجد الجد والحذر الحذر فإن يكن الأمر على ما نرجو كان ما عملتما فضلاً وإلا لم تلوما أنفسكما) وكان مطرف بن عبد اللّه يقول : (اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة اللّه وعفوه كانت لنا درجات ، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحذر لم نقل ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، نقول : قد علمنا فلم ينفعنا ذلك) .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ـ ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ـ ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ـ ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا رقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ـ واجعل ثأرنا على من ظلمنا ـ وانصرنا على من عادانا ـ ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ـ ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

فقه التجارة مع اللَّه عز وجل[1]

الحمد للَّه الملكِ القهار، العزيزِ الجبار، الرحيمِ الغفار، مقلبِ القلوب والأبصار، مقدِر الأمور، كما يشاء ويختار، مكوِر النهار على الليل، ومكوِر الليل على النهار، أسبلَ ذيل الليل فأظلم للسكون والاستتار، وأنار منار النهار فأضاء للحركة والانتشار، وجعلهما مواقيت الأعمال ومقادير الأعمار، وخلق الشمس والقمر يجريان بحسبان ومقدار، ويعتقبان في دارة الفلك الدائر على تعاقب الأدوار، وجعلهما معالم يعلم بهما أوقات الليالي والأيام والشهور والأعوام في هذه الدار، ويهتدي بهما إلى ميقات الصلاة والزكاة والحج والصيام والإفطار، حجةً قائمةً قاطعةً للأعذار، وحكمةً بالغةً من حكيم عليم ذي اقتدار.

أحمده وحلاوة محامده تزداد مع التَّكرار، وأشكره وفضله على من شكره مدرار، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، شهادة تبرىء القلب من الشرك بصحة الإقرار، وتبوىء قائلها دار القرار.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، البدرُ جبينه إذا سُرَّ استنار، واليم يمينه فإذا سئل أعطى عطاء من لا يخشى الإقتار، والحنيفية دينه القيم المختار. رفع اللَّه ببعثته عن أمته الأغلال والآصار، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار، وفرق بشريعته بين المتقين والفجار، حتى امتاز أهل اليمين من أهل اليسار، صلى اللَّه عليه وعلى آله أولي الأقدام والأقدار، وعلى أصحابه نجوم الأقطار، صلاة تبلغهم بها في تلك الأوطان نهاية الأوطار، وسلم تسليماً.

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ـ تفسير ابن كثير ـ البحر الرائق في الزهد والرقائق للمصنف.

ثم أما بعد ،،،

قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَارةٍ تنجيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم تؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خيْر لَكُمْ إنْ كنتُم تَعْلَمون ﴾ (الصف : ١٠ ، ١١) .

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يشْري نَفْسَهُ ابْتِغاء مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٠٧) .

وقال ﷺ : «كُلُّ النَّاس يَغْدو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أوْ موْبِقُهَا»[1] .

أي مهلكها .

ويقول القائل :

أخِي إنَّمَا الدُّنيَا كَسوقٍ قد تَزَيَّنَتْ ... أُقيمَ لَنا وانْفَضَّ عُمْرُ الفـوَانِيَـا
وَكلُّ امرىء لا بد يدخل سُوقَها ... سَـواء بهـذا كـارِهـاً أَمْ رَاضيَـا
وَلاَ بدَّ من بيع وَلاَ بُـدَّ من شرا ... ولا بـد يمشي رايحاً أو غـادِيَـا
وَسلعتـه الكبـرى التي يَبِيعُهَـا ... هي النَّفْسُ لكن من يكون الشَارِيَا
فَـإنْ بـاعهـا للَّه أعْتَقَهَـا إذن ... وَكَـانَ له من جَمْـرةِ النار وَاقِيـا
وَجنـةُ رَبِّي كانت الثمنَ الَّـذي ... سَيَقْبِضُهُ الإنسانُ فَرْحَانَ رَاضِيـا
وَقدْ ربحَ الْبَيْـعُ الَّذِي تَمَّ عَقْـدُهُ ... وَجَلَّ الإلَهُ الْمُشْتَـري جَلَّ رَبِّي

فالدنيا سوق عباد الله ، والتجارة إما مع الله عز وجل وربحها الحياة الطيبة في الدنيا ، والسعادة الأبدية في جنة الله عز وجل في الآخرة ، وإما مع الشيطان ، وربح هذه التجارة الشقاء والضنك والهم والغم والحزن في الـدنيا ، والشقـاء الأبدي والجحيم السرمدي في الآخرة ، كما قال ﷺ : «فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وليس هناك ثالث يساوم على نفس العبد وماله قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان ، فإن تولاه الله عز وجل لم يقدر عليه الشيطان ، وإن تركه الله عز وجل أخذه الشيطان .

وأعلى تجارة وأغلاها هي التجارة مع الله عز وجل ، ببذل النفس والمال لله

---

(١) رواه مسلم (٣/٩٩، ١٠٠) الطهارة : باب فضل الوضوء، والترمذي في الدعوات ، والنسائي في الزكاة وأوله « الطهور شطر الإيمان » وموبقها : أي مهلكها.

عز وجل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (التوبة : ١١١) .

عن أنس رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : «**لغدوة في سبيل اللّه أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها**»[١] .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : «**والذي نفسي بيده لوددت أن أغزُو في سبيل اللّه فأقتل ، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**»[٢] .

وروى الذهبي أن ابن المبارك لما كان مرابطاً بطرطوس سنة سبع وسبعين ومائة ، أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادةِ تَلْعَبُ
مَنْ كان يخْضِبُ خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أَوْ كان يُتْعِبُ خيله في باطلٍ	فخيولنا يومَ الصبيحة تتعبُ
رِيحُ العبير لكم ونحن عبيرنا	وَهَجُ السَّنَابِكِ والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبيِّنا	قولٌ صحيح صادق لا يُكذَبُ
لا يستوي غبارُ خيلِ اللّه في	أنف امرىءٍ وغبار نارٍ تَلْهَبُ
هذا كتابُ اللّهِ ينطق بيننا	ليس الشهيد بميتٍ لا يُكذَبُ

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه ، وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصح .

ثم قال للرسول أتكتب الحديث ؟ قال : نعم . قال : فاكتب هذا الحديث كِراءَ حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا ثم أملاه بسنده رواية لحديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : دُلني على عمل يعدل الجهاد . قال: «**لا أجده**». قال: «**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر ؟** قال : «**ومن يستطيع ذلك**»[٣] .

---

(١) رواه البخاري (١٣/٦) الجهاد : باب الغدوة والروحة في سبيل الله وقاب قوس أحدكم في الجنة ومسلم (٢٦/٣١) الإمارة فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ورواه الترمذي في فضائل الجهاد .

(٢) البخاري (٢١٧/١٣) التمني : باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة وفي الجهاد: باب تمني الشهادة، ومسلم (٢٣/١٣) الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله ورواه مالك في الجهاد والنسائي في الجهاد كذلك .

(٣) رواه البخاري (٤/٦) الجهاد: باب فضل الجهاد والسير واللفظ له ومسلم (٢٤/١٣، ٢٥) الإمارة : باب فضل الشهادة في سبيل الله ورواه مالك في الجهاد والنسائي في الجهاد كذلك.

قال أبو هريرة : إن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له حسنات ، فالجهاد في سبيل الله أعلى تجارة وأربح تجارة مع الله عز وجل .

وكل عبادة من العبادات أو معاملة من المعاملات الشرعية تجارة مع الله عز وجل ، وكل تجارة مع الله عز وجل فهي رابحة لا تخسر بحال من الأحوال . قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ** ﴾ (فاطر : ٢٩) .

وكل أحد من الناس إذا أراد معاملة غيره فإنما يريده لنفسه ، ويريد أن ينتفع منه نوع منفعةٍ ، والله عز وجل يريدك لك ، ويطلب منك أن تعامله عز وجل ، حتى تربح أنت عليه أعظمَ الربح ، وهو عز وجل غني عنك وعن معاملتك .

قال النبي ﷺ : «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلةٌ في الجنة**»[١] .

فانظر إلى مُضَيِّع الساعات كم يفوته من النخيل .

وقال ﷺ : «**اقرؤا القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إني لا أقول الٓم حرف ولكن ألفٌ عشر ولامٌ عشر وميمٌ عشر**»[٢] .

وقال ﷺ : «**من صلى في يوم ثنتي عشرة سجدةً تطوعاً ، بنى الله له بيتاً في الجنة**»[٣] .

أي من صلى السنن الرواتب في كل يوم يبنى له بيت في الجنة كل يوم . ما أربح التجارة مع الله عز وجل ! !

واعلموا عباد الله أن رأس مالنا الأوقات واللحظات ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة ، تستطيع أن تشتري بها كنزاً لا يفنى أبد الآباد ، فتضييعه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١٢٥ - ٢) وابن حبان والحاكم عن جابر مرفوعاً وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وصححه الألباني بشواهده الصحيحة رقم ٦٤ .

(٢) أخرجه الخطيب في التاريخ (١/٢٨٥) والديلمي (١/١/١٣) وقال الألباني : وهذا إسناد جيد رجاله رجال الصحيح غير ابن الجنيد ترجمه الخطيب وقال : وهو شيخ صدوق ، ووثقه غيره وروى الترمذي نحوه .

(٣) رواه مسلم (٦/٧) صلاة المسافرين : «فضل السنن الراتبة» وأبو داود في الصلاة والترمذي في الصلاة، والنسائي في قيام الليل.

وخسارته أو اشتراء صاحبه به ما يجلب هلاكه ، لا يسمح به إلا أقل النّاس عقلا ، وأكثرهم حمقاً ، واللَّه عز وجل جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يَذَّكَرَ أو أراد شُكُوراً .

والتجارة مع اللَّه عز وجل ليست كغيرها من التجارات ، فهي معاملة بين العبد الفقير والرب الجليل ، بين المخلوق الضعيف والخالق القدير ، فهي نوع خاص من المعاملات لا يشبه معاملة المخلوق للمخلوق ، وينبغي علينا عباد اللَّه أن ندرس فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ، حتى لا نكون يوم القيامة من المغبونين ، أو من اللذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

فما هو فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ؟

* من فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ، أن يعلم العبد أن اللَّه عز وجل غني عن العبد وعن عبادته ، وأن من عمل عملاً أشرك مع اللَّه عز وجل غيره فإن هذا العمل لا يقبله اللَّه عز وجل كما قال تعالى :

﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾ (الفرقان : ٢٣) .
فكل عمل كان بإرادة غير اللَّه مشوباً مغموراً يجعله اللَّه عز وجل يوم القيامة هباءً منثوراً .

فاللَّه عز وجل لا يقبل إلا الدينَ الخالصَ كما قال تعالى : ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الخالِصُ** ﴾ (الزمر : ٣) .

وقال عز وجل : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِيْنُ القَيِّمَةِ** ﴾ (البينة : ٥) . فيشترط اللَّه عز وجل على من أراد أن يتاجر معه الإخلاص ، والإخلاص إفراد اللَّه عز وجل بالقصد في العبادة ، وتجريد قصد التقرب إلى اللَّه عز وجل عن جميع الشوائب .

قال رسول اللَّه ﷺ : **«إن اللَّه لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه»**[1] .

---

(١) رواه النسائي (٦/٢٥) الجهاد: من غزا يلتمس الأجر والذكر، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: وإسناده حسن (٤/٢٨) وقال المنذري إسناده جيد (١/٢٤) الترغيب والترهيب.

* ومن فقه التجارة مع اللَّه عز وجل أن لا يعمل العبد عملاً إلا بنية ، قال ﷺ : «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1] .

فالنية الصالحة تقوى على رفع العمل المباح إلى درجة الطاعة ، كما قال بعض السلف : (إني لأَحْتَسِبُ نومتي كما أحتسب قومتي) وقال بعضهم : (لا تعملن عملاً إلا بنية) .

ومن فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ، أن يجمع العبد في العمل الواحد نياتٍ كثيرةً صالحةً ، قال النبي ﷺ : «**إنَّما لكلِ امرىءٍ مَا نوى**»[2] .

أي إن ثواب العامل على عمله ، بمقدار ثواب النيات التي يجمعها في العمل الواحد ، فمن ذهب إلى المسجد لصلاة الجماعة ، ولقاء إخوانه في اللَّه ، وسماع دروس العلم ، وإقامة ذكر اللَّه عز وجل ، وتنظيف المسجد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يعدم من يسيء صلاته أو يسيء إلى المسجد ، كان ثوابه على هذا العمل بمقدار ثواب النيات الصالحة التي جمعها في ذلك العمل ، ولذلك قالوا (تجارةُ النيات تجارةُ العلماء) والعلماء هم الذين يعرفون فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ، وكيف يربحون على اللَّه عز وجل أعظمَ الأرباح .

* ومن فقه التجارة مع اللَّه عز وجل ، أن يتأكد العبد أن عمله موافقٌ لسنة النبي ﷺ ، لقوله ﷺ : «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنا فَهُوَ رَد**»[3] .

فكل عمل لا يندرج تحت الشريعة ، ولا تكون شريعة النبي ﷺ حاكمة عليه بالصحة فهو مردود غير مقبول ، كما قال ﷺ : «**فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عَضُّواً عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإنَّ كل بدعةٍ ضلالة**»[4] .

---

(١) رواه البخاري (١/ ٩) بدء الوحي : باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وفي الإيمان وفي العتق، ورواه مسلم (١٣/ ٥٣، ٥٤) باب قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » ورواه أصحاب السنن الثلاثة .

(٢) الحديث السابق .

(٣) رواه مسلم (١٢/ ١٦) الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور بهذا اللفظ ، واتفقنا على إخراجه بلفظ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

(٤) أبو داود (١٢/ ٣٥٩، ٣٦٠) السنة : باب لزوم السنة ، والترمذي (١٠/ ١٤٣، ١٤٤) أبواب العلم وقال =

قال سفيان الثوري : لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة .

وقال الحسن البصري : السنةُ والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقي ، والذين لم يذهبوا مع أهل البدع في بدعهم ولا مع أهل الإتراف في إترافهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا .

* من فقه التجارة مع الله عز وجل أن يجعل العبد معاملته سراً بينه وبين الله عز وجل ، فإن الله عز وجل يحب من العباد أن يعاملوه سراً .

المحبون يغارون من إطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه . وكان السلف رضي الله عنهم يخفون حسناتهم كما نخفي سيئاتنا .

وفي الأثر : (من استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل) .

* من فقه التجارة مع الله عز وجل أن يحفظ العبد أعماله الصالحة من محبطات الأعمال ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (البقرة : ٢٦٤) .

فالمعصية بالمن بالصدقة على عباد الله ، أكبر من الصدقة ، وكما أن الحسنات يذهبن السيئات ، كذلك السيئات إذا قويت على الحسنات أحبطتها ، ولكن هذا الإحباط ليس كإحباط الكفر للإيمان فإذا عمل العبد عملاً صالحاً ، ينبغي عليه أن يحفظه فلا يمن به على الله عز وجل ، أو على عباد الله ، ولا يعجب به ، ولا يصيبه الكبر بسببه ، بل يعلم أن الله عز وجل هو المتفضل عليه بالتوفيق ، وعليه عز وجل القبول .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك

= الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد وابن ماجه رقم ٤٢ في المقدمة باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين ، وابن حبان في صحيحه . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠/١) .

ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا .

ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا .

ولا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

وصلِّ اللَّهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

صلة الرحم[1]

الحمد للّه المتفرد بوحدانية الألوهية ، المتعزز بعظمة الربوبية ، القائم على نفوس العالم بآجالها ، والعالم بتقلبها وأحوالها ، المانّ عليهم بتواتر آلائه ، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه ، الذي أنشأ الخلق حين أراد ، بلا معين ولا مُشير وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بقدرته مشيئتُه ، ونفذت فيهم بعزَّته إرادَتُه ، فألهمهم حسن الإطلاق وركب فيهم تشعب الأخلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمشون ، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون ، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون ، و ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُون** ﴾ (الروم : ٣٢).

وأشهد أن لا إله إلا اللّه ، فاطر السموات العلا ، ومنشىء الأرضين والثرى ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

وأشهد أن محمداً عبده المجتبى ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالنور المُضيِّ والأمر المَرْضِيّ على حين فترة من الرسل ودروس من السبل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأظهره على كل الأديان ، وقمع به أهل الأوثان فصلى اللّه عليه وسلم ما دار في السماء فلك ، وما سبح في الملكوت ملك وعلى آله أجمعين .

أما بعد ، ، ،

قال اللّه تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْس**

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء - غذاء الالباب للسفاريني - فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد - تفسير القرطبي - تفسير ابن كثير - فتح الباري شرح البخاري .

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

يقول اللّه تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ وهي حواء خلقت من ضلعه الأيسر ، وقوله : ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾ أي ذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساءً ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَاتقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ** ﴾ أي اتقوا اللّه بطاعتكم إياه ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن برُّوها وصلوها . وقوله : ﴿ **تَسَاءَلُونَ** ﴾ أي كما يقال : أسألك باللّه وبالرحم . وقيل : تتعاقدون وتتعاهدون به .

وقال تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُم إِنْ تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم** ﴾ (محمد : ٢٢ ، ٢٣) .

قال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام .

وقال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاماً ، أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «**إنَّ اللّه خلق الخلْقَ ، حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة ، قال نعم أما ترْضِين أن أصِلَ من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك**» ثم قال رسول اللّه ﷺ : «**اقرءوا إن شئتم**» ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُم إِنْ تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِين لَعَنَهُم اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها** ﴾ (محمد : ٢٢) .

والرحم هم قرابة الرجل من طرفي أبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة من المحبة والنصرة وعدم القطيعة ، والقيام بحقوقهم كتمريض المرضى ،

وحقوق الموتى ، من غسلهم والصلاة عليهم ، وغير ذلك من حقوق المسلمين ، وزيادة على ذلك النفقة على المحتاج منهم ، وتفقد أحوالهم ، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم ، حتى إذا تزاحمت الحقوق ، بدأ بالأقرب فالأقرب .

وقد وردت السنة بتأكيد أهمية هذه العبادة ، فمن ذلك ما رواه في الصحيح عن أبي أيوب الأنصاري رضي اللّه عنه أن رجلًا قال : (يا رسول اللّه أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال القوم مَا لَهُ مَا لَهُ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : «**أَرْبٌ مَا لَهُ فقال النبي ﷺ : تعبدُ اللّه لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاةَ ، وتؤتي الزكاةَ ، وتصل الرحمَ**»[1] .

وفي الصحيح كذلك من حديث أنس : (من أحب أن يبسط له في رزقه ، وَيَنْسَأ له في أَثَره فليصل رَحِمَه)[2] .

وقوله ﷺ : «**ينسأ له في أثره**» أي يؤخر أجله وسمي الأجل أثراً لأنه يتبع العمر .

قال زهير :

والمـرء ممـدود لـه أمـل لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

وأصله من أثر مشيه في الأرض ، فإن من مات لا يبقى له حركة ، فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر .

قال ابن التين : ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاء أَجَلُهُم لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (النحل : ٦١) .

والجمع بينهما من وجهين : أحدهما : أن الزيادة كناية عن البركة في العمر ، بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك ، مثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم ، فأعطاه اللّه ليلة القدر ، وحاصله أن صلة

---

(١) رواه مسلم (١/١٧٢ ، ١٧٣) الإيمان : باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة ومعنى « أَرْبٌ مَالَهُ» أي حاجة جاءت به فدعوه .

(٢) البخاري (١٠/٤١٥) الأدب : باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ، ومسلم (١٦/١١٤) البر والصلة: باب صلة الرحم وتحريم قطعها ورواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة.

الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة ، والصيانة عن المعصية ، فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يَمُتْ .

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر ، وأما الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم اللّٰه تعالى ، كأن يقال للملك إن عمر فلان مائة مثلاً إن وَصَلَ رحمه ، وستون إن قطعها ، وقد سبق في علم اللّٰه أنه يصل أو يقطع ، فالذي في علم اللّٰه لا يتقدم أو يتأخر ، والذي في علم الملك هو الذي فيه الزيادة أو النقصان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ (الرعد : ٣٩) . فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك .

وقيل فيه جواب ثالث : وهو أن واصل رحمه تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده .

وورد كذلك أن من وصل رحمه وصله اللّٰه .

ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال : «**إن الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن**» ، فقال : ﴿ **مَن وَصَلَكِ وَصَلْتُه وَمن قَطَعَكِ قَطَعته** ﴾[1] .

قيل وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة ، وقوله : «من الرحمن» أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في السنن مرفوعاً : «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي»[2] .

قال الإسماعيلي : معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن ، فلها به علاقة وليس معناه أنها من ذات اللّٰه تعالى اللّٰه عن ذلك .

والمعنى الجامع لصلة الرحم إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة . وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في اللّٰه هي صلتهم ، بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ، ولا يسقط مع

---

(١) البخاري (١٠/ ٤١٧) الأدب : باب من وصل وصله الله ورواه أحمد وابن أبي عاصم (٥٣٨) بمعناه.

(٢) الترمذي (٨/ ١٠٠) أبواب البر والصلة وقال الترمذي صحيح .

ذلك صلتهم بالدعاء لهم بِظَهْرِ الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى .

وقوله : «من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته» الوصل هو أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه ، وهو التقرب منه ، وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه ، وهو كما يليق بالله عز وجل وعظمته .

روى مسلم وأحمد عن أبي هريرة قال : أتى رجل للنبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي قَرَابَةً أصلهم ويقطعون ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، ويجهلون علي وأحلم عنهم قال : «**لئن كان كما تقول كأنما تسفُّهُم المَلَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»[1] .

قال النووي : كأنما تطعمهم الرماد الحار ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحَارِّ من الألم ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته ، وَإِدْخالهم الأذى عليه .

وقيل إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم ، لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف المل .

وقد أخبر النبي ﷺ أن الواصل ليس هو من يقابل الإحسان من الأقارب بالإحسان ، ولكنه من يقابل الإساءة منهم بالإحسان إليهم .

ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «**ليس الواصلُ بالمكافىء ، ولكنَّ الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[2] .

قال الطيبي : المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافىء صاحبه بمثل فعله ، ولكنه من يتفضل على صاحبه .

وقال البلقيني : المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوعُ صلةٍ بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه ، فإن فيه قطعاً بإعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل (ليس الشديد بالصُّرعة) و(ليس الغِنَى عن كثرة العَرَضْ) انتهى .

---

(١) مسلم (١٦/١١٥) البر والصلة : صلة الرحم وتحريم قطعها .

(٢) رواه البخاري (٤/١١٣) وفي الأدب المفرد (٦٨) وكذا الترمذي (١/٣٤٨) وأحمد (٢/١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣) غاية المرام (٢٣٢) رقم ٤٠٨ .

وقال ابن حجر : لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع ، فهم ثلاث درجات مواصل ومكافىء وقاطع ، فالواصل من يَتَفَضل ولا يُتفضَّلُ عليه ، والمكافيء الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ ، والقاطع الذي يُتَفَضَّلُ عليه ولا يَتَفَضَّلُ . وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين ، فمن بدأ حينئذٍ فهو الواصل ، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئاً .

وقد وردت الأحاديث كذلك بالوعيد الشديد لقاطع الرحم ففي الصحيحين أن جبير بن مطعم أخبر أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : **«لا يدخل الجنة قاطع»**[1] .

عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال : **«ما من ذنب أحرى أن يعجل اللّه لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**[2] .

قال الحجاوي : وقطيعة الرحم من الكبائر .

قال البلباني في آدابه : إعلم أنه يجب عليك أن تصل بقية رحمك ، وهم كل قرابة لك من النسب ، وقد قرن اللّه سبحانه الأرحام باسمه الكريم في قوله جل من قائل : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١) .

وذلك تنبيه عظيم على أن صلتها بمكان منه سبحانه ومقرب إليه ، وقطعها خطر عظيم عنده ومبعد عنه سبحانه .

أخرج الطبراني عن الأعمش قال : كان ابن مسعود جالساً بعد الصبح في حلقة فقال : (أنشد اللّه قاطعَ رحمٍ لما قامَ عَنّا ، فَإِنّا نريد أن ندعو ربنا ، وإنّ

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤١٥) الأدب : باب إثم القاطع ، ومسلم (١٦/١١٤) البر والصلة : صلة الرحم وتحريم قطعها .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٢٤) والبخاري في الأدب المفرد (١٢) وأبو داود (٢/٣٠١ ، ٣٠٢) والترمذي (٢/٨٣) وابن ماجه (٢/٥٥٢) والحاكم وأحمد وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم صحيح الإسناد وقال الألباني : وهو كما قال فإن رجال إسناده ثقات كلهم (الصحيحة - ٢/٦٢٣/٩١٧) .

أبوابَ السماءِ مُرْتَجَّةٌ دون قاطع رحم)[1] .

وروي كذلك في الآثار (أن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم ، وأن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[2] .

قال الحافظ في الفتح : قال الطيبي يحتمل أن يراد بالقوم الذين يساعدونه على قطيعة الرحم ولا ينكرون عليه ويحتمل أن يراد بالرحمة المطر وأنه يحبسه عن الناس عموماً بشؤم التقاطع .

وقال كذلك واعلم أن المراد بصلة الرحم موالاتهم ومحبتهم أكثر من غيرهم لأجل قرابتهم ، وتأكيد المبادرة إلى صلحهم عند عداوتهم ، والاجتهاد في إيصالهم كفايتهم بطيب نفس عند فقرهم ، والإسراع إلى مساعدتهم ومعاونتهم عند حاجتهم ومراعاة جبر خاطرهم ، مع التعطف والتلطف بهم ، وتقديمهم في إجابة دعوتهم ، والتواضع معهم مع غناه وفقرهم وقوته وضعفهم ومداومة مودتهم ونصحهم في كل شؤونهم ، والبداءة بهم في الدعوة والضيافة قبل غيرهم وإيثارهم في الصدقة والإحسان والهداية على من سواهم ، لأن الصدقة عليهم صدقة وصلة ، وفي معناه الهدية ونحوها ، ويتأكد فعل ذلك مع الرحم الكاشح المبغض ، عساه أن يرجع عن بغضه إلى مودة قريبه ومحبته . وفي الحديث : **«الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»**[3]. **انتهى.**

قال السفاريني : واعلم أن هذا كله ليس بواجب أكثره مندوب كما يعلم .

وينبغي على العاقل كذلك عباد الله أن يبادر إلى صلة ذي الرحم الكاشح ، وأن يدفع ما عنده من الضغن والبغضاء بالإحسان والإغضاء ، كما قال تعالى : **﴿ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾** (فصلت : ٣٤) .

---

(١) **قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود ـ مجمع الزوائد (١٥١/٨) كتاب البر والصلة .**

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن أبي أوفى ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم ٤٦٣ .

(٣) رواه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن ، والنسائي وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن سلمان بن عامر وصححه الألباني – صحيح الجامع رقم ٣٥٧٢ .

فكيف بالحميم الذي هو القريب .

فصل رَحِمَكَ رَحِمَكَ مولاك ، وخالف بذلك نفسَكَ وهواكَ ، واصبر على أذاهم فإن بذلك نبيك أوصاكَ ، وبالغ في الإحسان إلى من أساء إليك منهم تُحْمَدُ بذلك عُقْبَاك ، وحسن أَخْلاَقَكَ معهم تُرْضِي خَلاَّقَكَ ، وتنل راحتك ويطيب مثواك .

والله المسؤول أن يوفقني وإياكم وجميع المسلمين والمسلمات لما فيه السعادة ، وأن يرزقنا الحسنى وزيادة ، وصلى الله وسلم على النبي الأواب من جاء بالسنة والكتاب ، وعلى آله وصحبه ما دجت الأحلاك ودارت الأفلاك .

تنفيس كربات المسلمين وإعانتهم وستر عوراتهم والاجتماع على طلب العلم[1]

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، وجعل أمتنا ولله الحمد خيرَ أمة ، وبعث فينا رسولاً منا يتلو علينا آياته ويزكينا ، ويعلمنا الكتاب والحكمة .

أحمده على نعمه الجمة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عصمة .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله للعالمين رحمة ، وفرض عليه بيان ما أنزل إلينا ، فأوضح لنا كل الأمور المهمة ، وخصه بجوامع الكلم فربما جمع أشتات الحكم والعلوم في كلمة أو شطر كلمة ، قال ﷺ : **«بعثت بجوامع الكلم»**[2] .

فصلى الله عليه وآله وأصحابه صلاة تكون لنا نوراً من كل ظلمة وسلم تسليماً .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى . وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من نَفَّسَ عن مؤمن

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب .

(٢) رواه البخاري (١/٩٠) الجهاد ومسلم (٥٢٣) المساجد : في فاتحته والترمذي (١٥٥٣) والنسائي (٦/٣ ، ٤) الجهاد ـ جامع الأصول (٨/٥٣١) .

كربة من كرب الدنيا نفس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يَسَّرَ على معسر يسر اللّه عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره اللّه في الدنيا والآخرة ، واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل اللّه له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللّه فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1] .

هذا الحديث عباد اللّه يبين أبواباً من أبواب الخير ، يبينها لنا معلم الخير ﷺ ، وأول هذه الأبواب قوله ﷺ : **«مَنْ نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة»** .

والجزاء من جنس العمل كما قال ﷺ : **«إنما يرحم اللّه من عباده الرحماء»**[2] .

وقال ﷺ : **«إن اللّه يعذب الذين يُعَذِّبُون النَّاسَ في الدنيا»**[3] .

والكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب وتنفيسها تخفيفها ، والتفريج أعظم من ذلك وهو أن يزيل عنه الكربة ، فجزاء التنفيس التنفيس ، وجزاء التفريج التفريج . وقوله ﷺ : **«كُربة من كرب يوم القيامة»** ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر ، وقد قيل في مناسبة ذلك ، أن الكرب هي الشدائد العظيمة وليس كل أحد يحصل له ذلك بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر فإن أحداً لا يكاد يخلو من ذلك وقيل لأن كُربَ الدنيا بالنسبة إلى كُرَبِ الآخرة كلاشيء ، فادخر اللّه جزاء تنفيس الكرب عنده لينفس به كرب الآخرة .

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٢١ ، ٢٢) الذكر والدعاء : باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى ذكر ، وأبو داود (١٣/ ٢٨٩ ، ٢٣٠) الأدب : باب في المعونة للمسلم ، والترمذي في الحدود وفي البر والصلة .

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٥١) الجنائز . باب قول النبي ﷺ : «يعذب الميت ببكاء» ، ومسلم (٦/ ٢٢٥) الجنائز : باب البكاء على الميت ، والأربعة وأحمد في المسند .

(٣) رواه مسلم (١٨/ ١٦٧) البر : باب الوعيد والشريد لمن عذب الناس بغير حق ، وأبو داود (٨/ ٢٩٨) في الخراج والإمارة في التشديد في الجباية .

ويدل على ذلك حديث الشفاعة في الصحيحين بمعناه : (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس منهم فيبلغ الناس من الكرب والغم ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم)[1] .

وفيهما كذلك من حديث عائشة عن النبي ﷺ قال : «**يُحشر الناس حفاةً عراةً غرلاً ، قال فقلت يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم بعضاً ؟ فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**»[2] .

وفيهما من حديث ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالِمينَ** ﴾ (المطففين : ٦) قَالَ : « **يقومُ أَحَدُهُمْ فِي الرشح إلى أنصاف أذنيه** »[3] .

ولمسلم من حديث المقداد عن النبي ﷺ قال : «**تدنو الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً**»[4] .

وقوله ﷺ : «**ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة**» .

وقد وصف الله عز وجل يوم القيامة بأنه يوم عسير ، على الكافرين غير يسير وقال عز وجل : ﴿ **وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** ﴾ (الفرقان : ٢٦) .

فأخبر النبي ﷺ أن الله عزّ وجلّ ييسر هذا اليوم على من يسر على

---

(١) البخاري (٦/٣٧١) الأنبياء : باب قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ، ومسلم (٣/٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) الإيمان : الشفاعة ، والترمذي في صفة القيامة .

(٢) البخاري (١١/٣٧٧) الرقاق : باب الحشر ، ومسلم (١٧/١٩٣) القيامة : فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة واللفظ له ورواه الترمذي في القيامة والنسائي في الجنائز ، وأحمد في المسند .

(٣) البخاري (٨/٦٩٦) التفسير باب «يَوْمَ يَقُوم النَّاسُ لربِّ الْعَالِمِين» ، مسلم (١٧/١٩٥) صفة يوم القيامة .

(٤) رواه مسلم (١٧/١٩٦) صفة يوم القيامة ، وقال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين .

معسر ، والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين : إما بإنظاره إلى الميسرة ، وذلك واجب كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ وتارة بالوضع عنه إن كان غريماً ، وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره، وكلاهما له فضل عظيم .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لصبيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه**»[1] .

وفيهما عن حذيفة وأبي مسعود الأنصاري سمعا النبي ﷺ يقول : «**مات رجل فقيل له بم غَفَرَ الله لك ؟ فقال : كنت أبايع الناس فأتجاوز عن الموسر وأخفف عن المعسر**» وخرجه مسلم من حديث أبي مسعود عن النبي ﷺ وفي حديثه قال الله : «**نحن أحَقُّ بذلك منه تجاوزوا عنه**»[2] .

وخرج مسلم أيضاً من حديث أبي اليسر عن النبي ﷺ قال : «**من أنظر معسراً أو وضع عنه ، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»[3] .

وقوله ﷺ : «**ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة**» .

وشاهد هذا حديث أبي بردة عن النبي ﷺ قال : «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه الله في بيته**»[4] .

واعلم أن الناس نوعان : أحدهما : من كان مستوراً لا يعرف بشيء من المعاصي، فإذا وقعت منه هفوة أو زلة فإنه لا يجوز هتكها ولا كشفها ولا التحدث

---

(1) رواه البخاري (٦/٤٩٤) الأنبياء : باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم (١٠/٢٢٦) المساقاة : باب فضل إنظار المعسر .

(2) رواه البخاري (٤/٣٠٩) البيوع : باب من أنظر معسراً ، ومسلم (١٠/٢٢٤) الساقاة : باب فضل إنظار المعسر .

(3) رواه مسلم (٤/٢٣٠٢) ضمن حديث جابر ـ شرح السنة (٨/١٩٨) بتحقيق شعيب الأرناؤوط .

(4) رواه الترمذي (٢٠٣٣) في البر والصلة وسنده حسن من حديث أبي برزة الأسلمي ، وأخرجه أبو داود (٤٨٨٠) وسنده حسن في الشواهد وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات ـ شرح السنة (١٣/١٠٤/١٠٥) .

بها ، لأن ذلك غيبة محرمة ، وهذا هو الذي وردت فيه النصوص ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (النور : ١٩) .

قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام .

والنوع الثاني : من كان مشتهراً بالمعاصي ، معلناً بها ولا يبالي بما ارتكب منها ولا بما قيل له ، فهذا هو الفاجر المعلن ، وليس له غيبة كما نص على ذلك الحسن البصري وغيره ، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود .

ثم قال ﷺ : «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» .

بعث الحسن البصري قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل ، وقال لهم : «مُرُّوا بثابت البناني فخذوه معكم ، فأتوا ثابتاً فقال : أنا معتكف . فرجعوا إلى الحسن فأخبروه ، فقال : قولوا له : يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة . فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم» .

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للحي أغنامهم ، فلما استخلف قالت جارية منهم الآن لا يحلبها . فقال أبو بكر بلى وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله أو كما قال : وإنما كانوا يقومون بالحلاب لأن العرب كانت لا تحلب النساء منهم ، وكانوا يستقبحون ذلك ، وكان الرجال إذا غابوا احتاج النساء إلى من يحلب لهن .

وكان عمر يتعاهد الأرامل يستقي لهن الماء بالليل ، ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة ، فدخل إليها طلحة نهاراً فإذا هي عجوز عمياء مقعدة ، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندك ، قالت هذا منذ كذا وكذا يتعاهدني ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى .

فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة أعورات عمر تتبع .

وكان أبو وائل يطوف على نساء الحي وعجائزهن كل يوم ، فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن .

وقال مجاهد : صحبت ابن عمر في سفر لأخدمه فكان يخدمني

وقوله ﷺ : **«ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»** .

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم ، مثل حفظه ومدارسته ومذاكرته ومطالعته وكتابته والتفهم له ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصل بها إلى العلم .

وقوله ﷺ : **« سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة »** قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه وسلك طريقه ، وييسره عليه ، فإن العلم طريق يوصل إلى الجنة .

قال بعض السلف : هل من طالب علم فيعان عليه . وقد يراد أيضاً أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى والانتفاع به والعمل بمقتضاه ، فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك . وقد يدخل في ذلك أيضاً تسهيل طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده ، والعلم يدل على الله عز وجل من أقرب طريق ، بل لا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بمجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع ، الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، ولهذا سمى الله تعالى كتابه نوراً ، لأنه يهتدى به في الظلمات قال الله تعالى : **﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبَلَ السَّلَامِ وَيُخرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِم إِلَى صِرَاطٍ مُستقيم ﴾** (المائدة : ١٥) .

وما دام العلم باقياً في الأرض فالناس في هدى . وبقاء العلم ببقاء حملته ، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال ، كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، فإذا لم يبق**

عالم اتَّخذ الناس رؤوساً جُهّالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1] .

وسئل عبادة بن الصامت عن هذا الحديث فقال : لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس الخشوع .

وإنما قال عبادة هذا لأن العلم قسمان : أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان وهو العلم باللَّه تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله المقتضي لخشيته ومهابته وإجلاله والخضوع له ومحبته ورجائه ودعائه والتوكل عليه ونحو ذلك ، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود : إنَّ أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع .

وقال الحسن : العلم علمان علم على اللسان فذاك حجة اللَّه على ابن آدم ، وعلم في القلب فذاك العلم النافع .

وأول ما يرفع من العلم العلم النافع ، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها ، ويبقى علم اللسان حجة فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حملته ، فلا يبقى إلا القرآن في المصاحف ، وليس ثمَّ من يعلم معانيه ولا حدوده ولا أحكامه ، ثم يُسْرَى به في آخر الزمان فلا يبقى في المصاحف ولا في القلوب منه شيء بالكلية ، وبعد ذلك تقوم الساعة .

قوله ﷺ : «وما جلس قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللَّه فيمن عنده» .

ودل على استحباب الاجتماع لمدارسة القرآن في الجملة الأحاديث الدالة على استحباب الاجتماع للذكر ، والقرآن أفضل أنواع الذكر .

وفي الحديث الذي نحن بصدده أن الذين يجتمعون في المسجد على الذكر جزاؤهم أربعة أشياء : نزول السكينة عليهم ـ وغشيان الرحمة ـ وحفوف الملائكة ـ وذكر اللَّه عز وجل لهم في ملأه الأعلى .

---

(١) رواه البخاري (١/١٩٤) العلم : باب كيف يقبض العلم ، ومسلم (١٦/٢٢٣ ، ٢٢٤) العلم : باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان .

أما نزول السكينة : ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال : (كان رجلٌ يقرأ سورة الكهف وعنده فرس فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال تلك السكينة تنزل للقرآن)[١] . فرأى هذا الصحابي رضي اللّٰه عنه السكينة بعيني رأسه مثل السحابة تدنو وتقترب لقرائته .

أما غشيان الرحمة : فقد قال عزّ وجلّ : **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** . وخرج الحاكم من حديث سلمان أنه كان في عصابة يذكرون اللّٰه تعالى فمر بهم رسول اللّٰه ﷺ فقال : **«ما كنتم تقولون ؟ فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأردت أن أشارككم فيها»** .

أما حفوف الملائكة : ففي الصحيحين عن أبي سعيد **«أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ القرآن في مربده ، إذ جالت فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أيضاً ، قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى (يعني ابنه) قال : فقمت إليها فإذا مثل الظلةِ فوق رأسي ، فيها مثل أمثال السرج ، عرجت في الجو حتى ما أراها ، قال فغدا على النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : تلك الملائكة كانت تسمع لك ، ولو قرأت لأصبحت تراها الناس ما تستتر منهم»**[٢] .

وكذلك حديث الملائكة السيارة وفيه **«فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»**[٣] .

وأما ذكر اللّٰه عز وجل لأهل المجلس : ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه أن النبي ﷺ قال : **«أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين**

---

(١) رواه البخاري (٩/٥٢) فضائل القرآن باب فضل سورة الكهف ، ومسلم (٦/٨١ ، ٨٢) صلاة المسافرين : باب نزول السكينة لقارىء القرآن ، والترمذي (١١ ، ١٦) ثواب القرآن : باب ما جاء في فضل سورة الكهف .

(٢) رواه البخاري تعليقاً في فضائل القرآن : باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن بصيغة الجزم عن الليث وقال الحافظ : وصله أبو عبيد في فضائل القرآن ، ورواه مسلم (٦/٨٢ ، ٨٣) صلاة المسافرين : باب نزول السكينة لقارىء القرآن .

(٣) رواه البخاري (١١/٢٠٨ ، ٢٠٩) الدعوات : باب فضل ذكر اللّٰه عز وجل ، ومسلم (١٧/١٤ ، ١٥) الذكر : باب فضل مجالس الذكر ، وبين روايتها اختلاف في بعض الألفاظ مع اتحاد المعنى .

يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في مـلأ ذكرته في **مـلأٍ خيرٍ منهم**»[1] .

وذكر اللّٰه للعبد هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى بين ملائكته ، ومباهاته به ، وتنويهه بذكره .

ثم ختم النبي ﷺ هذه الوصية الغالية بقوله ﷺ : **«ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** ومعناه أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة ، كما قال تعالى : **﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾** .

فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند اللّٰه لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات ، فإن اللّٰه تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب ، كما قال تعالى : **﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾** (المؤمنون : ١٠١) .

وقد أمر اللّٰه تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال ، كما قال تعالى : **﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾** (آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤) .

قال ابن مسعود رضي اللّٰه عنه : يأمرُ اللّٰه بالصراط فيضرب على جهنم فيمر الناس على قدر أعمالهم زمراً زمراً ، أوائلهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كمر المطر ثم كمر البهائم ، حتى يمر الرجل سعياً ، وحتى يمر الرجل مشياً ، حتى يمر آخرهم يتلبط على بطنه فيقول يا رب لِمَ أبطأت بي ؟ فيقول : **إني لم أبطىء بك ولكن أبطأ بك عملك** . .

وصلى اللّٰه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) رواه البخاري (١٣/٣٨٤) التوحيد : باب قول اللّٰه تعالى : **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾** ومسلم (١٧/٢ ، ٣) الذكر والدعاء : باب الحث على ذكر اللّٰه تعالى ، والترمذي (١٣/٩١) الدعوات : باب حسن الظن باللّٰه .

الأمر بحفظ حدود اللّه عز وجل وأوامره ونواهيه[1]

إن الحمد للّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عن أبي العباس عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما قال: **«كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه ، واعلم**

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ونور الاقتباس له كذلك .

ومن حفظ اللّه في صباه وقوته حفظه اللّه في حال كبره وضعف قوته ، ومتعه بسمعه وبصره وقوته وعقله . وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو متمتع بقوته وعقله فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها اللّه علينا في الكبر .

وقد يحفظ اللّه العبد بصلاحه بعد موته في ذريته ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُما صَالِحاً ﴾ (الكهف : ٨٢) الآية أنهما حُفِظَا بصلاح أبيهما . قال سعيد بن المسيِّب لابنه : لأزيدن في صلاتي من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ .

قال بعض السلف : من اتقى اللّه فقد حَفِظَ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه واللّه غني عنه .

والنوع الثاني : من الحفظ هو أشرف النوعين : حفظ اللّه للعبد في دينه وإيمانه ، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان ، وقد لا يشعر العبد بذلك الحفظ ، وقد يكون كارهاً له قال تعالى في حق يوسف عليه السّلام : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنا الْمُخْلصِين ﴾ (يوسف : ٢٤) . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَحولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِه ﴾ (الأنفال : ٢٤) . قال : يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار .

وقال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له ، فينظر اللّه إليه فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه اللّه عنه فيظل يتطير بقوله : سبني فلان وأهانني فلان وما هـو إلاَّ فضل اللّه عزّ وجلّ .

وقوله ﷺ : «احفظ اللّه تجده تجاهك» وفي رواية : «أمامك» معناه أن من حفظ حدود اللّه وراعى حقوقه ، وجد اللّه معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل : ١٢٨) . قال قتادة : (من يتق اللّه يكن معه ، ومن يكن اللّه معه فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل) .

أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وَجَفّت الصحف» .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي : «احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً»[1] .

هذا الحديث عباد الله شريف القدر ، عظيم الموقع ، يتضمن وصايا عظيمة وقواعدَ كليةً من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرت هذا الحديث فأدهشني حتى كدت أطيش ، فوأأسفاً من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه . قوله ﷺ : «احفظ الله» يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه ، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الَّذِينَ مدحهم الله في كتابه وقال عز وجل : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أوابٍ حَفِيظٍ ﴾ (ق : ٣١) . وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله ، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها ، وقوله ﷺ : «يحفظك» يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ، فإن الجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُم ﴾ (البقرة : ٤٠) . وقال : ﴿ إن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد : ٧) . وحفظ الله لعبده نوعان : أحدهما حفظه في مصالح دنياه ، كحفظه في بدنه وأهله وماله قال الله عز وجل : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أمرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد : ١١) . قال ابن عباس : هم الملائكةُ يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه .

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٨٦ ، ٢٨٨) ، ورواه الترمذي (٩/٣١٩ ، ٣٢٠) في أبواب صفة القيامة وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقال ابن رجب رحمه الله : أصح طرق الحديث طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي وهو إسناد حسن لا بأس به - بتصرف من نور الاقتباس في شرح حديث ابن عباس لابن رجب .

وكتب بعض السلف إلى أخ له : (أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف ، وإن كان عليك فمن ترجو) .

والمعية نوعان : معية خاصة ، ومعية عامة ، فأما المعية الخاصة ففي مثل قول الله عز وجل لهارون وموسى : ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه : ٤٦) . وقول موسى : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء : ٦٢) .

وفي قوله عز وجل حاكياً عن رسولنا الكريم ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

وهي معية النصر والتأييد والحفظ والإعانة ، والمعية العامة كما في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة : ٧) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء : ١٠٨) . وهي معية الإطلاع والمراقبة ، فالمعية الأولى معية الأنس بالله عزّ وجلّ والرضا به والتسليم لأمره ونهيه وقضائه وقدره ، والمعية الثانية معية الخوف والحذر .

قوله ﷺ : «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» وهذا كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة : ٥) . فالسؤال هو الدعاء والدعاء كما قال النبي ﷺ هو العبادة .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النساء : ٣٢) .

وسؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل ، والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر ، ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده ، لأنه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه ، كما قال : ﴿ إِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ وقال: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ (فاطر : ٢) .

والله سبحانه يحب أن يسأل ، ويرغب إليه في الحوائج ، وَيُلَحُّ في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك كله ، يكره أن يسأل ، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته لذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك : ويحك تأتي من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٠) .

ويقول بعضهم :

لا تسألنَّ بني آدم حاجةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إن تَرَكْت سُؤَالَهُ ... وَإِذَا سَأَلْتَ بُنَيَّ آدَمَ يَغْضَبُ

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره ، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل ، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول .

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ عَوْنٌ لِلْفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به ، فصار مخذولاً ، كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز لا تستعن بغير الله فيكلك إليه .

قوله ﷺ : **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»** والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدور عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له ، وقد دل القرآن على ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة : ٥١) . وقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (الحديد : ٢٢) وقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كُنتُم فِي بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) . واعلموا عباد الله أن هذا مدار الوصية كلها ، وما ذكر قبل ذلك وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن

العبد إذا علم انه لن يصيبه إلا ما كتب اللّٰه له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذٍ أن اللّٰه وحده هو الضار النافع المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم اللّٰه من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عابده شيئاً ، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير اللّٰه ، أوجب له إفرادَ اللّٰه عز وجل بالعبادة ، والسؤال والتضرع والخوف والرجاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً ، وأن يتقي سخطه وإن كان فيه سخط الخلق كلهم ، فيعلم العبد عند ذلك أن الأمر للّٰه عز وجل والخلق للّٰه عز وجل كما قال تعالى : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

ويعلم أن اللّٰه عز وجل بيده خزائن كل شيء ، وأنه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وأن نواصي الخلق كلهم بيد اللّٰه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (هود : ٥٦) .

ويعلم كذلك أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فمدار الوصية على التوحيد وبيان أن اللّٰه عز وجل وحده هو المستحق للعبادة ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ** ﴾ (الزمر : ٣٨) .

وقوله : «رفعت الأقلام وجفت الصحف» هو كناية عن تقدم المقادير كلها ، والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده ، فقد رفعت الأقلام وجفت الأقلام التي كتبت بها من مدادها وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، وقد دل الكتاب والسنن الكثيرة على مثل هذا المعنى ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ (الحديد : ٢٢) .

وفي صحيح مسلم عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «**إنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادير الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أن يَخْلُقَ السَماوات وَالأرض بِخمسين ألف سَنة**»[1] .

وفيه أيضاً عن جابر أن رجلاً قال يا رسول اللّه «**ففيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل ؟ قال : اعملوا كل ميسر لما خلق له**»[2] .

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : «**إن أول ما خلق اللّه القلم ثم قال : اكتب فكتب في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[3] .

(١) رواه مسلم (٢٠٣/١٦) القدر : باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام والترمذي (٣٢١/٩) أبواب القدر .

(٢) رواه مسلم (١٩٧/١٦ ، ١٩٨) القدر : باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه .

(٣) رواه أبو داود (٤٦٨/١٢) السنة : باب القدر ، والترمذي (٣٢٠/٩) القدر ، ورواه أحمد في المسند (٣١٧/٥) وصححه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول .

أحوال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة[1]

الحمد للّه المتفرد بوحدانية الألوهية ، المتعزز بعظمة الربوبية ، القائم على نفوس العالم بآجالها ، والعالم بتقلبها وأحوالها ، المَانِّ عليهم بتواتر آلائه ، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه ، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير ، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بقدرته مشيئته ونفذت فيهم بعزته إرادته ، فألهمهم حسن الإطلاق ، وَرَكَّب فِيهم تشعب الأخلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمشون وعلى تشعب أخلاقهم يدورون ، وفيما قضى عليهم يهيمون و ﴿ كُلّ حزْبٍ بِمَا لَديْهِم فَرِحُون ﴾ (الروم : ٣٢) .

وأشهد أن لا إله إلا اللّه فاطر السموات العلى ، ومنشىء الأرضين والثرى ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

وأشهد أن محمداً عبده المجتبى ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالنور المضيِّ والأمر المَرْضِي ، على حين فترة من الرسل ودروس من السبل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأظهره على كل الأديان ، وقمع به أهل الأوثان ، فصلى اللّه عليه وسلم ما دار في السماء فلك ، وما سبح في الملكوت ملك ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، ، ،

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أيدِيهِم وَبِأيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهار خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي - تفسير القرطبي - فتح القدير للشوكاني - البحر الرائق للمصنف .

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِين امنُوا انْظُرُونا نقْتبس مِنْ نُوركُم قِيل ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُه فِيهِ الرَّحْمَة وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَاب . يُنَادُونهُم أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا : بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُم وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُور ، فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِير ، أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللَّهِ ومَا نَزل مِن الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كالَّذِين أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُون ، اعلمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ (الحديد : ١٢ : ١٧) .

يقول اللّه تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين يوم القيامة ، أنهم يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، وبأيمانهم كتبهم . قال ابن مسعود : (على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يَتَّقِد مرة ويطفأ مرة) .

وعن قتادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند اللّه بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك . وقيل ليس أحداً لا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين أحوج ما يكونون إليه ، عند ذلك يقول المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ (التحريم : ٨) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ (الحديد : ١٢) أي وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابهُ بِيَمِينِه ﴾ (الإنشقاق : ٧) وقوله عز وجل : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار ﴾ (الحديد: ١٢) . أي يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة بشراكم أي المبشر به جنات ، أو بشراكم دخول الجنات . قال ابن القيم رحمه اللّه : وكيف يُقدّرُ قَدْرَ دارٍ خلقها اللّه بيده ، وجعلها مقراً لأحبابه ، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها الخير بحذافيره وطهرها من كل

عيب وآفة ونقص ، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن ، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب ، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة لا من الحطب والخشب ، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلَل ، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمرٍ لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب**»[1] .

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ قال اللَّه عز وجل : «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر**» مصداق ذلك في كتاب اللَّه ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[2] (السجدة : ١٧) .

فيا عجباً ممن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن اللَّه في خرابها ، ويهنأ بعيش دونها ، واللَّه لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان ، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته .

كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور متمتعون ، لهم فيها ما يشتهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه اللَّه الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر إلى وجه اللَّه ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ،

---

(١) رواه البخاري (١٣/٦) الجهاد : باب الغدوة والروحة في سبيل اللَّه ، ومسلم (٢٦/١٣) الإمارة : باب فضل الغدوة والروحة .

(٢) رواه البخاري (٣١٨/٦) بدء الخلق : ما جاء في صفة الجنة ، ومسلم (١٦٦/١٦) الجنة في فاتحته والترمذي في التفسير .

ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ، وهم من زوالها آمنون .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «**ينادي منادٍ يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قول اللّه عز وجل : ﴿ ونُودُوا أن تِـلْكُـمُ الْجَنَّةُ أُوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾**[1] (الأعراف : ٤٣) .

وبعد أن بين اللّه عز وجل حال المؤمنين ، وكيف أنهم يعطون النور في الآخرة بقدر أعمالهم ، ويحملون كتابهم بأيمانهم ، وتبشرهم الملائكة بجنة اللّه عز وجل خالدين فيها ، وأن ذلك هو الفوز العظيم ، بين اللّه عز وجل أحوال المنافقين إذا حرموا النور يوم القيامة ، أو أطفأ عنهم أحوج ما يكونون إليه .

فقال عز وجل : **﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نقْتَبِس مِنْ نوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَاً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الْرّحمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَاب ﴾** (الحديد : ١٣) .

قوله : **﴿ انْظُرُونَا ﴾** أي انظروا إلينا ، وقيل بمعنى انتظرونا وهو الذي عول عليه ابن جرير، وكأنهم يقولون للمؤمنين ذلك حينما يساقون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون ما يزالون في عرصات الآخرة وأهوالها وعذابها ، والمراد حينئذٍ من الانتظار الاقتباس من نورهم ، ورجاء شفاعتهم ، أو دخول الجنة معهم ، طمعاً في غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حين يسرع بهم إلى الجنة .

﴿ قِيْلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتمسُوا نُورَاً ﴾ قال الزمخشري : طرد لهم وتهكم بهم ، أي ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هناك فمن ثَمّ يقتبس ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا

---

(١) رواه مسلم (١٦/١٧٥) صفة الجنة : باب في دوام نعيم أهل الجنة ، والترمذي (١٢/١٢٥) التفسير : باب ومن سورة الزمر .

سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أنه لا نور وراءهم وإنما هو تخييب وإقناط لهم .

قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الذي قال الله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ (الأعراف : ٤٦) قال ابن كثير وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي الجنة وما فيها وظاهره من قِبلهِ العذاب .

والنفاق عباد الله هو الداء العضال ، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخٌ من ذلك كله مكذب به .

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم ، وجَلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر .

هم أحسن الناس أجساماً وألطفهم بياناً ، وأخبثهم قلوباً وأضعفهم جناناً ، فهم كَالْخُشُب الْمُسَنَّدة التي لا ثمر لها ، قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها لئلا يطأها السالكون . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُم تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُم وَإِن يَقُولُوا تَسْمَع لِقَولِهِم كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدة يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم هُمُ الْعَدُوّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفكُونَ ﴾ (المنافقون : ٣) .

يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فالصبح عند طلوع الشمس ، والعصر عند الغروب ، وينقرونها نقر الغراب ، إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب ، ويلتفتون فيها التفات الثعلب إذ يتقين أنه مطرودٌ وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، ما أكثرهم وهم الأقلون ، وما أجهلهم وهم المتعالمون ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُم لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُون ﴾ (التوبة : ٥٦) .

كره الله طاعاتهم لخبث قلوبهم وفساد نياتهم فثبطهم عنها وأقعدهم ، وأبغض قربهم منه وجوارهم لميلهم إلى أعدائه فطردهم عنه وأبعدهم ، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِين ﴾ (التوبة : ٤٦) .

ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم وطردهم عن بابه وإبعادهم ، وأن ذلك من لطفه بأوليائه ، وإسعادهم فقال وهو أحكم الحاكمين : ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُم يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكم سَمَّاعُونَ لَهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين** ﴾ (التوبة : ٤٧) .

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين ، فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً ، ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً** ﴾ (النساء : ٦١) .

كثروا! واللّه على ظهر الأرض وفي أجواف القبور ، لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات ، سمع حذيفة رضي اللّه عنه رجلاً يقول اللّهم أهلك المنافقين فقال : (يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك) .

تاللّه لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين ، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لحذيفة : (يا حذيفة نشدتك باللّه هل سماني لك رسول اللّه ﷺ منهم ؟ قال لا ولا أزكي بعدك أحداً» .

وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ : (أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل) . وذكر عن الحسن البصري (ما أَمِنَه إلّا منافق ، وما خافه إلا مؤمن) قوله : ﴿ **ينادُونَهُم أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُم أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وَارْتَبْتُم وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِي حَتى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرور** ﴾ (الحديد : ١٤) .

أي ينادي المنافقون المؤمنين ، أما كنا معكم في الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟ (قالُوا بَلَى) قد كنتم معنا ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيّ** ﴾ .

أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ، وتربصتم أي أخرتم التوبة ، وقال قتادة تربصتم بالحق وأهله ﴿ وَارتبتُم ﴾ أي برسالة محمد ﷺ ، وبالبعث بعد الموت ، ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ أي قلتم سيغفر لنا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّه ﴾ أي ما زلتم في هذه الحالة بغير توبة حتى جاءكم الموت ، ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرور ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار .

قال بعض العلماء : إن للباقي بالماضي معتبراً ، وللآخر بالأول مزدجراً ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ، ومن ذكر المنية نسي الأمنية ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل .

فمعنى قول المؤمنين للمنافقين إنكم كنتم معنا ، أي بالأبدان لا بالقلوب . كنتم معنا بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك وتربص وغرور . ثم بالغ المؤمنون في توبيخهم وتقريعهم وتقنيطهم ، فقالوا : ﴿ فَاليَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُم فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَروا مَأوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِير ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه ، كما لا تقبل الفدية كذلك ممن أظهر كفره وعناده .

وقوله تعالى : ﴿ مَأوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هي مصيركم وإليها منقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿ هِيَ مَوْلاَكُم ﴾ أي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير ، ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِين أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد : ١٦) .

يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه ، عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من

قبلهم من اليهود والنصارى ؛ لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب اللّه الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة . وقلدوا الرجال في دين اللّه ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ، وكثير منهم فاسقون أي في الأعمال ، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِه وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِه** ﴾ (المائدة : ١٣) ولهذا نهى اللّه المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية ، ثم قال عز وجل : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (الحديد : ١٧) .

فيه إشارة إلى أن اللّه عز وجل يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضَلَّتِها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتال الوابل ، كذلك يحيي القلوب ببراهين القرآن والدلائل ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

انتهى بحمد اللّه تعالى ما تيسر جمعه واللّه أسأل أن يَعُمَّ نفعه وأن يرزقنا يوم القيامة بره وذخره ، وكان الانتهاء من المراجعة النهائية يوم الاثنين ١٨ ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هجرية .

مراجع الكتاب

أ ـ تفاسير :

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي .
٢ ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير .
٣ ـ محاسن التأويل ـ للقاسمي .
٤ ـ فتح القدير ـ للشوكاني .
٥ ـ أضواء البيان ـ للشنقيطي .

ب ـ حديث :

١ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ طبعة السلفية .
٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ المطبعة المصرية .
٣ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق أبادي
٤ ـ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ـ لابن العربي المالكي .
٥ ـ سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي
٦ ـ سنن ابن ماجه بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي
٧ ـ مسند الإمام أحمد بفهرس الألباني .
٨ ـ جامع الأصول لابن الأثير بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دار الفكر .
٩ ـ شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط ـ دار بدر .
١٠ ـ إرواء الغليل ـ للألباني المكتب الإسلامي
١١ ـ صحيح الترغيب والترهيب ـ للألباني المكتب الإسلامي .
١٢ ـ مختصر الترغيب والترهيب لابن حجر بتحقيق د . أسامة عبد العظيم
١٣ ـ تلخيص الحبير ـ لابن حجر العسقلاني .

١٤ - مجمع الزوائد - لابن حجر الهيثمي .
١٥ - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام - للألباني المكتب الإسلامي .
١٦ - تخريج مشكلة الفقر في الإسلام - للألباني المكتب الإسلامي .
١٧ - مختصر الشمائل - للألباني .
١٨ - مشكاة المصابيح - للتبريزي بتحقيق الألباني .
١٩ - موطأ مالك - رواية محمد بن الحسن الشيباني .
٢٠ - دراسة حديث «نَضَّر اللّه امرءاً» - لعبد المحسن العباد .
٢١ - زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم - لحبيب اللّه الشنقيطي .

ج - فقه :

١ - المجموع شرح المهذب - للنووي دار الفكر .
٢ - فقه الزكاة - للقرضاوي مؤسسة الرسالة .

د - رقائق وآداب :

١ - رياض الصالحين - للنووي .
٢ - غذاء الألباب - للسفاريني .
٣ - العِقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي .
٤ - صيد الخاطر - لابن الجوزي .
٥ - لطائف المعارف - لابن رجب الحنبلي
٦ - التبصرة - لابن الجوزي .
٧ - غالية المواعظ - للألوسي .
٨ - تذكر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - لابن جماعة الكناني .
٩ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي .
١٠ - البحر الرائق في الزهد والرقائق - للمصنف .
١١ - جامع العلوم والحكم - لابن رجب الحنبلي .
١٢ - اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى - طبعة مؤسستنا .
١٣ - نور الاقتباس في شرح حديث ابن عباس - طبعة مؤسستنا .
١٤ - شرح حديث «ما ذئبان جائعان . . » - لابن رجب .

١٥ ـ الخطابة لأبي زهرة .
١٦ ـ إصلاح الوعظ الديني ـ لمحمد عبد العزيز الخولي .
١٧ ـ فضل اللّٰه الصمد ـ شرح الأدب المفرد لفضل اللّٰه الجيلاني .
١٨ ـ إحياء علوم الدين ـ للغزالي بتحقيق العراقي .
١٩ ـ موعظة المؤمنين ـ للقاسمي .
٢٠ ـ مختصر منهاج القاصدين ـ لابن قدامة طبعة مؤسستنا .
٢١ ـ التخويف من النار ـ لابن رجب الحنبلي .
٢٢ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ـ لأبي حاتم البستي .
٢٣ ـ أهوال القبور ـ لابن رجب الحنبلي .

ـ كتب متنوعة :

١ ـ الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام ـ للقرطبي .
٢ ـ حياة الصحابة ـ لمحمد يوسف الكاندهلوي .
٣ ـ بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ
٤ ـ الإتحافات السنية بشرح الأحاديث القدسية
٥ ـ مجلة رسالة المسجد العدد الخامس في الدعوة والدعاة
٦ ـ رسالة دمروا الإسلام لجلال العالم
٧ ـ اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان ـ لإبراهيم بن عبيد .
٨ ـ إصلاح المساجد ـ للقاسمي .
٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية ـ لأبي العز الحنفي .
١٠ الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ لابن حجر الهيثمي .

فهرس الموضوعات

طبعت بمطابع دار الحرمين بالقاهرة
ت : 4820392